الباب الثالث

في آداب المعلم والمتعلم وهي ثلاثة أنواع

النوع الأول

آدابها في نفسها ، وآدابها في مجلس الدرس

فأما آدابها في نفسها فمنها أول ما يجب على كل منهما أن يقصد وجه الله بأشغاله واشتغاله لا لمال ولا أجرة ، أو شهرة ، أو سمعة ، أو تمييز عن الاشباه أو تكثر بالمشتغلين عليه ، أو المختلفين إليه ، ولا يشين علمه أو تعليمه بشيء من الطمع في رفق يحصل من تلميذ ، أو خدمة ، أو مال وإن قل ولو على صورة الهدية التي لولا اشتغاله لما أهداها إليه كما أن المتعلم لا يشين طلبه بطمع في شيء يعطيه له الشيخ ، أو أن ينزل اسمه في طلبة العلم لينال شيئاً من معلوم أو غيره ، ودليل هذا كله ما مر في تحذير من أراد بعلمه غير الله وقد تقدم في أول الفصل الثاني من الباب الأول . قال سفيان بن عيينة : كنت قد أوتيت فهم القرآن ، فلما قبلت العشرة من أبي جعفر سلبته ، وقد صح عن الشافعي أنه قال : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم ، وما نسب إلي شيء منه ، وقال رضي الله عنه : ما ناظرت أحداً وأحببت أن يخطي ، وقال رضي الله عنه : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت مودته ، ولا كابرني على الحق أحد ودافع الحجة إلا سقط من عيني . وعن أبي يوسف يا قوم أريدوا بعلمكم الله ، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أني أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح .

ومنها أن يكون كلٌّ منهما قويَّ اليقين ، الذي هو رأسُ مالِ الإيمان كله قال صلى الله عليه وسلم : اليَقينُ الإيمانُ كُلهِ ، وقال صلى الله عليه وسلم : تَعَلَّمُوا اليَقِينَ .

ومنها أن يحافظ[1] على القيام بشعائر الإسلام ، وظواهرِ الأحكام كإقامةِ الصلوات في مساجد الجماعات ، وإفشاء السَّلام للخواصّ والعوام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبرِ على الأذى بسبب ذلك ، صادِعًا بالحقّ عندَ السلاطين باذلاً نفسَهُ لله ، لا يخافُ فيه لومةَ لائم ذاكراً قوله تعالى : (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) .

وكذلك يقوم[2] بإظهار السُّنن ، وإخماد البِدَعِ ، ويقومُ لله في أمور الدِّين وما فيه من مصالح المسلمين على الطَّريق المشروع ، والمَسلك المطبوع ، ولا يرضى من أفعاله الظَّاهرة والباطنة بالجائز منها ، بل يأخذُ بالأكمل فإنَّ العلماءَ هم القدوة واليهم المرجع في الأحكام ، وهم حُجَّةُ الله على العوام ، وقد يراقبُهم للأخذ عنهم مَن لا ينظرونه ، ويقتدي بهديهم مَن لا يعلمونه ، وإذا لم ينتفع العالمُ بعلمه فغيرُهُ أبعدُ عن الانتفاع به ، كما قال الشافعي : ليس العلمُ ما حُفِظ ، العلمُ ما نفعَ ، ولهذا عظُمت زلةُ العالم لِمَا يترتَّبُ عليها من المفاسد لاقتداء الناس به .

ومنها أن يتخلَّق كلٌّ منهما بالمحاسن التي ورد الشَّرعُ بها من الزُّهد والسَّخاء والجود وطلاقة الوجه ، من غير خروج إلى حدّ الخلاعة ، وكظم الغيظ ، وكفّ الأذى عن الناس ، واحتماله منهم ، وأن يتنزَّه عن دنيء الاكتساب طبعًا ، ومكروهها شرعًا ، كالحجامة ، والدِّباغة ، والصِّياغة ، وملازمة الوَرَع والخشوع ، والسكينة والوَقار ، والتَّواضُع وإفشاء السَّلام ، وإطعام الطَّعام ، والإيثار وتركِ الاستئثار ،

---

(١) أي كلّ منهما .

(٢) أي كلّ من العالم والمتعلّم .

والانصاف وترك الاستنصاف ، وشكر المتفضل ، والسعي في قضاء الحاجات ، وبذل الجاه والشفاعات ، والتلطف بالفقراء ، والتحبب إلى الجيران والأقرباء ، ومجانبة الإكثار من الضحك والمزاح [1] فإنه يقلل الهيبة ويسقط الحشمة كما قيل من مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به .

ومنها أن يلزم نفسه الخوف والحزن والانكسار والصمت ، ويظهر الخشية على هيئته وكسوته ، لا ينظر إليه ناظر إلا ويكون نظره مذكراً بالله ، وتكون صورته دليلاً على علمه . قال عمر رضي الله عنه : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تعلمون منه ، وليتواضع لكم من يتعلم منكم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم . وفي الخبر : إن من خيار أمتي قوم يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ، ويبكون سراً من خوف عذابه ، أبدانهم في الأرض وقلوبهم في السماء ، أرواحهم في الدنيا وقلوبهم في الآخرة .

ومنها ملازمة الآداب الشرعية القولية والفعلية ، الظاهرة والخفية ، كتلاوة القرآن وذكر الله بالقلب واللسان ، والدعوات والاذكار آناء الليل وأطراف النهار ومن [2] نوافل العبادات من الصلاة والصيام وحج البيت الحرام والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، فمحبته [3] وإجلاله وتعظيمه صلى الله عليه وسلم واجب ، فكان الإمام مالك إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير وجهه وينحني . وكان جعفر بن محمد إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اصفر . وكان القاسم إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يخف لسانه في فيه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينبغي إذا تلي القرآن أن يتفكر في معانيه وأوامره ونواهيه ، وليحذر

---

(١) أنظر هنا المزح الجائز من المزح الحرام من كتاب المراح في المزاح .
(٢) أي وان يكثر من نوافل إلى آخره .
(٣) أي النبي .

من نسيانه بعد حفظه، وأن يقرأ القرآن في كل سبعة أيام فهو ورد حسن ويقال من قرأ القرآن في كل سبعة أيام لم ينسه قط(١)، وأن يكون له ورد راتب كل يوم لا يخل به.

ومن الآداب التنظيف بإزالة الأوساخ، وقص الأظفار، وإزالة الشعور المطلوب زوالها، واجتناب الروائح الكريهة، وتسريح اللحية، وليجتهد في الإخلاص في التوبة والدوام عليها من الأفعال الذميمة(٢) وليلازم الأفعال الحميدة الظاهرة والباطنة، والمقامات العلية، والأحوال السنية، وأعلاها محبة الله الجامعة لكل فائدة، المجتنبة لكل خصلة فاسدة، وكذلك محبة رسوله صلى الله عليه وسلم واتباعه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ الآية.

ومنها أن يطهر نفسه من الخبائث الباطنة، من مساوئ الأخلاق، ومذموم الأوصاف كالحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس والغل والبغي والغضب لغير الله الغش إلى غير ذلك من تعدد أوصاف خبائث النفس، فكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح إلا بتطهير الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بني الدين على النظافة، والقلب منزل الملائكة، ومهبط أثرهم». وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب، والصفات الرديئة في القلب كلاب نابحة، ونور العلم لا يقذفه الله في القلب إلا بواسطة الملائكة»، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ

---

(١) قلت: وهذا أصل ابتداع السبع الحسن.

(٢) الجار والمجرور في قوله من الأفعال الذميمة متعلق بالمصدر وهو خلاص أي في إخلاص التوبة من الأفعال الذميمة ولا يكون متعلقا بالدوام فسد المعنى.

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً) (١) . وقال ابنُ مسعودٍ ليسَ ٱلعلمُ بكَثرةِ ٱلرِّوايةِ ، إِنَّما ٱلعلمُ نورٌ يُقذَفُ في ٱلقلبِ ، ووعظ بعضهم فقال : طهِّروا قلوبَكم من ٱلأغيار تَصْلُحْ لنزول ٱلقرآن وٱلأنوار ، طهِّر ٱلمنزل حتى ينزل ، ومَن حصل له ٱلساكن طابت له ٱلمساكنُ ، ومَن لم تُفتَح له ٱلمنازلُ رضي بسكنى ٱلمزابل

إنَّ بيتًا أَنتَ ساكنهُ غير مُحتاج إِلى ٱلسّرج
ومريضًا أَنت عائدهُ قد أَتاهُ ٱللهُ بٱلفرج
وجهك ٱلمأمول حجتنا يوم تأْتي ٱلناسُ بٱلحجج

وكان ٱلشِّبليّ يقول :

اطلبوا لأنفسكم مثل ما وجدْتُ أَنا
قدوجدْتُ لي سكنًا ليس يُشبِه ٱلسكنا
إِن دَنوتُ قرّبني أَو بَعُدتُ عنه دَنا

وقد ٱبتُلي بعضُ أَصحاب ٱلنفوس ٱلخبيثة من فُقهاءِ ٱلزمان بكثيرٍ من هذه ٱلصفات ٱلذميمة إِلاَّ مَن عصمَه ٱللهُ . وأَدوية ذلك مسترفاة في كتب ٱلرّقائق ومن أَنفعها كتاب ٱلرِّعاية للمحاسبي .

ومن أَدوية ٱلحسد أَن يعلم أَن حكمةَ ٱللهِ ٱقتضت جعلَ هذا ٱلفضل في هذا ٱلانسان فلا يعترضْ ولا يكرهْ ، فإِن ٱعترضَ وكره فسُنَّةُ ٱللهِ في مثل هذا جرت أَن يسلبه حالتَه ٱلتي أَنم بها عليه وأَن يزيدَ محسودَه نِعمًا لشُكرِه وتواضُعه وعدم غضبه لنفسه ، وما أَحسنَ ما قال ٱلإمام ٱلمعافا ٱبن زكريا ٱلموصلي :

أَلا قُلْ لمن كان لي حاسدا أَتدري على مَن أَسأْتَ ٱلأَدب
أَسأْتَ على ٱللهِ في فعله لأَنك لم ترضَ لي ما وهب
فجازاك عني بأَن زادني وسدَّ عليك وُجوهَ ٱلطلب

---

(١) وحيًا بواسطة ٱلملَك ، أَوْ من وراءِ حجاب ، نودي يا موسى ، أَو يُرسل رسولاً ليبلغ أُمَّته فيكون بين الحق وبين ٱلمبلَّغ من ٱلأُمة ٱثنان : ٱلرّسول وٱلملَك وبين ٱلرّسول وٱلحقّ جلّ جلاله واحدٌ وهو ٱلملَك .

ولأبي حنيفة رحمه الله في الحسد :

إن يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي كثيراً أهالي الفضل قد حسدوا
فدام لي وبهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

ومن أدوية الرياء أن يعلم أنّ الخلق لا يقدرون على نفعه ولا ضرّه بما لم يقدّره الله تعالى عليه ، فلا يتشاغل بمراعاتهم فيتعب نفسه ، ويرتكب سخط الله مع أن الله يطلعهم على نيته وسريرته في ريائه لهم وخوفه منهم .

ومن أدوية الاعجاب أن يعلم أنّ علمه وفهمه وجودة ذهنه وفصاحته وغير ذلك من النعم فضلٌ من المنعم جل وعلا وهو معه عارية وأمانة ، وأن معطيه إياها قادرٌ على سلبها منه في طرفة عين ، كما سلب بلعام ما علمه في طرفة عين ، نسأل الله السلامة .

ومن أدوية الاحتقار التأدّبُ بما أدّب الله تعالى به عباده ، قال تعالى : (لا يسخر قوم من قوم) . وقال تعالى : (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) . وقال تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . فربما كان هذا الذي دونه أطهر قلباً ، وأخلص نية ، وأزكى عملاً ، كما قيل : إن الله تعالى أخفى ثلاثة في ثلاثة : وليه في عباده ، ورضاه في طاعته ، وغضبه في معاصيه ، ثم إن هذا المحتقر لا يعلم بماذا يختم له ، ففي الصحيح : إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة الحديث ، نسأل الله العافية من كل داء .

ومنها أن يتجنب مواضع التهم ، فإنه يعرّض نفسه وعرضه للوقوع في الظنون المكروهة ، فإن اتفق له وقوع شيء من ذلك لحاجة أخبر من شاهده وأصحابه بحقيقة ذلك الفعل لئلا يأثموا بظنهم الباطل ولئلا ينفروا عنه . قال تعالى : (إن بعض الظن إثم) . ومن هذا الحديث الصحيح : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجلين لما رآياه يتحدث مع صفية فوليا على رسلكما إنها صفية ، ثم قال : إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم فخفت أن يقذف في قلوبكما شيئاً ، ورؤي فتهلكا .

ومنها أن يكون زاهداً في الدنيا غير مُبالٍ بفواتها مقتصداً في مطعمه وملبسه وأثاثه ومسكنه غير مترفه تشبيهاً بالسلف ، ويتأكد في حق الطالب أن يقلل علائقه من أشغال الدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن ، فإن العلائق شاغلة وصارفة ، قال تعالى : (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) . ونقل يحيى ابنُ معاذ الرازي : إنه كان يقول لعلماء الدنيا يا أصحابَ العلم قصوركم قيصرية ، وبيوتكم كسروية ، وأثوابكم ظاهرية ، وأخفافكم جالوتية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآثمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية ، فأين المحمدية ؟ وقوله طاهرية بالطاء المهملة نسبة لطاهر بن الحسين المتولي على خراسان ، وأقل درجات العالم أن يستقذر المتعلق بالدنيا ، فهو أولى باستقذارها في حق نفسه . وعن الشافعي رضي الله عنه لو أُوصي لأعقل الناس صرف إلى الزهاد فليت شعري من أحق من العلماء بزيادة العقل وكماله ؟ وقال يحيي بن معاذ : لو كانت الدنيا تبراً يفنى ، والآخرة خزفاً يبقى ، لكان ينبغي للعاقل إيثار الخزف الباقي على التبر الفاني ، فكيف والدنيا خزف فانٍ ، والآخرة تبرٌ باقٍ .

ومنها أن يكون منقبضاً عن الملوك وأبناء الدنيا لا يدخل إليهم صيانةً للعلم كما صانه علماء السلف . فمن فعل ذلك فقد عرّض نفسه لما لا قِبلَ له به ولا طاقة ، وخان أمانته ، فإن العلمَ أمانةٌ عنده ، قال تعالى : (لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . وقال تعالى : (يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ ٱللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ) الآية . إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم : ٱلْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ ٱلرُّسُلِ عَلَى عِبَادِهِ مَا لَمْ يُخَالِطُوا ٱلسُّلْطَانَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَٰلِكَ فَقَدْ خَانُوا ٱلرُّسُلَ فَٱحْذَرُوهُمْ وَٱعْتَزِلُوهُمْ .

وعن مسعود رضي الله عنه : من أراد أن يُكرِمَ دينه فلا يدخل على السلطان ولا يخلونَّ بالنسوان ولا يُخاصمنَّ أهل الأهواء . قال الاوزاعي : ما شيء أبغض

إلى الله تعالى من عالم يزور أميراً . وقال حذيفة رضي الله عنه : إياكم ومواقف الفتن ، قالوا : وما هو ؟ قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه في الكذب ويقول ما ليس فيه ، فإن دعت إلى ذلك ضرورة أو مصلحة دينية فلا بأس ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف في المشي إلى الملوك وولاة الأمر على أنهم قصدوا بذلك حصول الأغراض الدنيوية المساعدة للأحوال الدينية فاعلمه والله أعلم .

ومنها أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور ، وإن اتفق عليها الجمهور[1] فلا تغترّ بإطباق الخلق على ما حدث بعد الصحابة ، وكن حريصاً على التفتيش عن سير الصحابة وأعمالهم ، أكانوا مهتمين بالتصدير والمناظرة ، والقضاء والولاية ، وتولي الأوقاف والوصايا ، ومال الأيتام ، ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة ، أو في الخوف والحزن ، والتفكر والمجاهدة ، إلى غير ذلك من علوم الباطن .

واعلم يقيناً أن أعلم أهل الزمان أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريقهم ، فعنهم أخذ الدين . قال علي رضي الله عنه : خيرنا أتبعنا لهذا الدين . وقال ابن مسعود : أنتم في زمان خيركم فيه المسارع في الأمور ، وسيأتي بعدكم زمان يكون خيركم المتثبت المتوقف ، لكثرة الشبهات . وقال حذيفة رضي الله عنه : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى ، وأن منكركم معروف زمان قد يأتي ، وأنكم لا تزالون بخير ما عرفتم الحق ، وكان العالم فيكم غير مستخف به .

قال الغزالي وقد صدق ، فأكثر معروفات هذه الأعصار منكرات في عصر الصحابة إذ من غرر المعروف في زماننا تزيين المساجد ، وإنفاق الأموال العظيمة في عمارتها ، وبسط البسط الرفيعة فيها ، ولقد كان يعد فرش البواري

---

(١) أي من الناس .

في المسجد بدعةً ، وقيل إنه من محدثات[1] الحجاج ، فقد كان الأولون قلّ ما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً .

ومن ذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة ، ويعدّونه من أجلّ علوم الزمان ، ويزعمون أنه من أعظم القربات ، وقد كان ذلك من المنكرات .

ومن ذلك التقشّفُ في النظافة ، والوسواسُ في الطهارة ، وتقدير النجاسة البعيدةِ ، في نجاسة الثيابِ مع التساهُل في حلّ الأطعمة وتحريمها .

ومن ذلك[2] التلحين في الأذان والقراآت ، والتباهي بذلك إلى غير ذلك من النظائر . ولقد صدق ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال : أنتم اليومَ في زمانٍ ، الهوى فيه تابعُ العلم ، وسيأتي عليكم زمانٌ يكون العلمُ تابعاً للهوى وكان هشام يقول : لا تسألوهم اليومَ عما أحدثوا ، فإنهم أعدّوا له جواباً ، ولكن سلوهم عن السُّنّة فإنهم لا يعرفونها . وقال الحافظ الفرجُ ابنُ الجوزي في كتابه الأحاديث الموضوعة بعد ذكره لحديثٍ في قراءة الفاتحة وآيات منها : شَهِد اللهُ أنه لا إله إلا هو عقيبَ الصلاة ، هذا حديثٌ موضوعٌ كنتُ سمعتُه في زمن الصبي فاستعملتُه نحواً من ثلاثين سنةً لحسن ظني بالرُّواة ، فلما علمتُ أنه موضوعٌ تركتُه ، فقال لي قائلٌ : أليس هو استعمالُ خيرٍ فقلتُ استعمالُ الخيرِ ينبغي أن يكون مشروعاً ، فإذا علمنا أنه كذبٌ خرج عن المشروعية انتهى .

ومنها أن تكون عنايتُها بتحصيل العلم النافعِ في الآخرة ، المرغّب في الطاعة ، متجنّبينَ العلومَ التي يقلّ نفعُها ، ويكثرُ فيها الجدال ، والقيل والقال . رُوي أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علّمني من غرائب العلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما صنعتَ في رأسِ العلمِ ؟ قال : وما رأسُ العلم ؟ قال : هل عرفتَ الربَّ ؟ قال : نعم قال : وما صنعتَ من حقّه ؟ قال : ما شاء الله ، قال : هل عرفتَ الموتَ ؟ قال : نعم ، قال : وما أعددتَ له ؟

---

(١) أي من المحدثات المنكرة المعدّة قُربةً .

(٢) أي من المنكرات .

قال : ما شاء الله ، قال : اذهب فأحكم ما هنالك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم . وينبغي أن يكون التعليم من جنس ما روي عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخي أن شقيقاً قال له : منذ كم صحبتني ؟ قال حاتم : منذ ثلاثة وثلاثين سنة فقال : ما تعلمت مني في هذه المدة ؟ قال : ثمان مسائل : فقال شقيق : إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل ! فقال : يا أستاذ لم أتعلم غيرها ، ولا أحب أن أكذب فقال : هات هذه الثمان مسائل حتى أسمعها فذكرها ، والقصة مشهورة في كثير من الكتب وهي مشتملة ، الأولى على محبة الحسنات ، والثانية على مدافعة هوى النفس ، والثالثة على الصدقة ، والرابعة على النسبة للتقوى ، والخامسة على ترك الحسد ، والسادسة على مصادقة الخلق وعداوة الشيطان ، والسابعة على ملازمة الطاعة وترك الذل للانعتاق بسبب المعيشة ، وترك الحرام ، والثامنة على التوكل على الله تعالى ؛ فقال شقيق : بعد ما قرر حاتم الثمان مسائل يا حاتم وفقك الله . إني نظرت في علم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فرأيته يدور على هذه الثمان مسائل ، اللهم توفيقاً للعمل الصالح واجتناباً للطالح .

ومنها أن يكون اهتمامه بعلم الباطن ، ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه ، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة ، فإن المجاهدة تفضي إلى المشاهدة في دقائق علوم القلب ، وتتفجر منه ينابيع الحكم الخارجة عن العد والحد من طريق مفتاح الإلهام ، ومنبع الكشف لا بالكتب المدونة ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة ، وكم من مقتصر على المهم في التعلم فتح الله عليه من لطائف الحكم ما تحار فيه عقول ذوي الألباب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . وفي بعض الكتب السالفة يا بني إسرائيل : لا تقولوا : العلم في السماء من ينزل به ، ولا في الأرض من يصعد به ، ولا من وراء البحار من يأتي به . العلم محصور في قلوبكم ، فتأدبوا بين يدي تأدب الروحانيين

وتخلقوا إلى تخلق الصديقين · أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم ·

ومنها أن يبحث عما يفسد الأعمال، ويشوش القلب، ويهيج الوسواس، ويثير الشر، فإن أصل الدين التوقي من الشر، ولذلك قيل: اعرف الشر لا للشر، لكن لتوقيه، ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه، وقيل لحذيفة رضي الله عنه: نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة! فمن أين أخذته؟ قال: خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان الناس يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخير لا يسبقني، وقال مرة، فعلمت أن من لا يعرف الشر، لا يعرف الخير، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة يسألونه عن الفتن العامة والخاصة، وكان يسأل عن المنافقين فيخبر باعداد من بقي، ولا يخبر بأسمائهم، وكان عمر يسأله عن نفسه هل يعلم بها شيئاً من النفاق، فبرأه من ذلك، وكان أعني عمر رضي الله عنه، إذا دعي إلى جنازة نظر، فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك، وكان حذيفة رضي الله عنه يسمى صاحب السر بالسين المهملة ·

ومنها وهو من أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال والفهم وعدم الملالة، أكل القدر اليسير من الحلال الذي لا شبهة فيه، قال الشافعي رضي الله عنه: ما شبعت منذ ست عشرة سنة، وسبب ذلك أن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب، وهي جالبة للنوم والبلادة، وفتور الحواس والكسل، هذا مع ما فيه من الكراهة الشرعية، والتعرض لخطر الأسقام البدنية كما قيل:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

وقد جمع بعض الحكماء في كثرة الأكل خمسين آفة، ونظمها مولانا وسيدنا وشيخنا شيخ الإسلام والد المصنف رحمه الله وأبقى خلفه فقال:

في كثرة الأكل يا ذا العقل والنظر ... خمسون آفة كن منها على حذر
توليد سقم وثقل ثم طول كرى ... ووحشة النفس مع غم ومع بطر

وقسوةٌ وعمى قلبٍ تُؤثّرهُ   وهُزْلُ روحٍ ونقض الخوف والحذَر
وقلة العقل مع جهلٍ مكثّره   وقلة الشُّكر والإخلاص والخفَر
وشهوة تنمُ مع ترك الحياء كذا   نسيان علمٍ وذكر الموت في العمر
وحبّ دُنيا وشحٍّ والبقاء كذا   حبّ الشياطين فقد الصّبر مع ضجَر
وذمّ حكمةٍ أيضاً والعداوة مع   تهييج عادة أشواقٍ مع الأشَر
وبغض مولاهُ مع هدم العبادة مع   فقد البهاء وحَرْج الدين بالغير
والضحك أيضاً وإذهاب الحلاوة من   قلبٍ وإبدال صفوٍ منه بالكدر
وترك ذكرٍ وإذهاب اليقين كذا   ترك افتقار وآدابٍ لمعتبر
وترك الأعمال والأذكار من حسد   والبعد من جنّةٍ والقرب من سقر
ثم التغفل ينمو والفضول كذا   وللشياطين تسليط على البشر
كذاك تفريق صحبٍ وارتكابُ مها   صي الله جلّ وهذا غاية الخطر
وفي رسائل إخوان الصّفا لها   شرحٌ بذا الحصر وافٍ غير مختصر
وهاك في هذه الأبيات جملتها   تلخّصت فأتتْ في النّظم كالدّرر

ولبعضهم في بعض فوائد الجوع:

في الجوع عشرُ فوائدٍ عن حصرها   عجز البيانُ وباء بالتقصير
من بعضها كسرُ الهوى وبكسره   فوز الفتى بعوارف التحبير
وصفا القلوب وحفظها في سيرها   من علة التكدير والتأثير
وإدامةُ السهر الذي هو مقصدٌ   في شرع أهل الجدّ والتشمير
وسلامة الجسد الذي هو مركبٌ   للقصد من عللٍ ومن تغيير
وهو المذكرُ بالفقير وحاله   ولرُبّ خيرٍ جاء في التذكير
وبه على الإيثار تحصل مُكنةٌ   تبدو لطائفها لكلّ بصير
وعلى العبادة أي عونٍ للفتى   في ضمنه بل أيما تيسير
وبه انحسامُ مواد كلّ ضرورةٍ   يأتي من الشيطان للتغرير
والمرءُ ذو مؤنٍ في تقليلها   طرحٌ لما يدعو إلى التكثير

obeikandi.com

فأَجِعْ فُؤَادَكَ للوَفا مُتعرِّضاً   وأَسلكْ سبيلَ مُحَقِّقٍ وخبيرِ
وأَعلم بأَنَّ الجوعَ في شرعِ الوَلا   مفتاحُ بابِ الفتحِ عن تحريرِ

والأَولى أن يكون ما يأخذُهُ من الطَّعام والشَّراب ما ورد : بحسب ابن آدمَ لقيماتٌ يقمنَ صُلْبَهُ . فإن كان لا محالةَ ، فثلثٌ لطعامه ، وثُلُثٌ لشرابه ، وثلثٌ لنفسه ، وأما زيادته علَى ذلك فهي من الإسراف ، وقد قال تعالى : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) . قال بعض العلماء : جمع الله بهذه الكلمات الطِّبَّ كلَّه .

ومنها أن يقلِّلَ استعمالَ المطاعم الَّتي هي من أسباب البلادة ، وضعف الحواسّ كالتفَّاح الحامض ، والباقلا ، وشرب الخلّ ، وكذلك ما يُكثِر استعماله البلغمَ المثقل للبدن ، المبلد للذّهن ككثرة الألبان والسَّمك وأشباه ذلك .

وينبغي أن يستعمل ما جعله الله تعالى سبباً لجودة الذّهن كمضغ اللّبان والمصطكى علَى حسب العادة ، وأكل الزّبيبِ بكرةً والجلاّب ونحو ذلك مما ليس هذا موضع شرحه .

وينبغي أن يجتنب ما يولد النسيان بالخاصيّة كأكل سؤر الفأر ، وقراءة ألواح القبور ، والدّخول بين جملين مقطورين ، والشّتي بين الغنم والمعز ، وليقرأ سورة لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إذا دخل في الشّياه لقوله تعالى : (وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) . وإلقاء القمل ونحو ذلك من المجرّبات ، ونحو ذلك من المحذرات الواردة ، وللحافظ البرهان النّاجي في ذلك كتابُ قلائد العقيان فيما يورث الفقرَ والنسيان ، جمع فيه فأوعى ، وقد اختصره المرحومُ شيخنا الرضي والد المصنف شيخُ الإسلام في أرجوزة سماها نظم القلائد .

ومنها أن يقلّلَ نومهُ ما لم يلحقه ضررٌ في بدنه وذهنه ، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة علَى ثمانِ ساعات ، وهو ثلثُ الزّمان ، فإن احتمل حاله أقلَّ منها فعل ، ولا بأس أن يُريحَ نفسه وقلبه وذهنه وبصرَه إذا كلَّ باستراحة وتنزه وتفرّج في المتنزهات بحيث يعود إلى حاله ، ولا يُضيّع عليه زمانه ، ولا بأس بمعاناة المشي ، ورياضة البدن به ، فقد قيل : إنه ينعش الحرارة ، ويُذيبُ فضول

الأخلاط ، وينشط البدن ، ولا بأس بالوطيء الحلال إذا احتاج إليه ، فقد قال الأطباء : إنه يخفف الفضول ، وينشط ويصفي الذهن إذا كان عند الحاجة إليه باعتدال ، ويحذر كثرته كل الحذر ، فإنه يضعف السمع والبصر والعصب والحرارة والهضم ، ويحدث غير ذلك من الأمراض المردية ، وهو كما قيل : ماء الحياة يصب في الأرحام .

ومنها أدعية وفوائد وردت يستعان بها على حفظ القرآن والعلم ، فينبغي مراعاتها ، وإن كان غالبها ضعيفاً . عن ابن عباس مرفوعاً : من سره أن يودعه الله عز وجل القرآن وحفظ أصناف العلوم فليكتب هذا الدعاء في إناء نظيف ، أو في صحفة قوارير بعسل وزعفران وماء مطر ، ويشربه على الريق ، وليصم ثلاثة أيام ، وليكن إفطاره عليه ، ويدعو به في ادبار الصلوات المكتوبة : اللهم إني أسألك بأنك مسؤول لم يسأل مثلك ، أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم رسولك ونبيك ، وإبراهيم خليلك وصفيك ، وموسى كليمك ونجيك ، وعيسى كلمتك ورُوحك ، وأسألك بصحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى ، وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، وأسالك بكل وحي أوحيته ، وبكل حق قضيته ، وبكل سائل أعطيته ، وأسألك بأسمائك التي دعا بها أنبياؤك فاستجبت لهم ، وأسألك باسمك المخزون المطهر ، الطاهر المبارك المقدس ، الحي القيوم ذي الجلال والإكرام ، وأسألك بأسمائك : الواحد الأحد الصمد الفرد الوتر ، الذي ملأ الأركان كلها ، وأسألك باسمك الذي وضعته على السموات فقامت وأسألك باسمك الذي وضعته على الأرضين فاستوت ، وأسألك باسمك الذي وضعته على الجبال فرست ، وأسألك باسمك الذي وضعته على النهار فاستنار ، وأسألك باسمك الذي تحيي به العظام وهي رميم ، وأسألك بكتابك المنزل بالحق ، ونورك التام : أن ترزقني حفظ القرآن ، وحفظ أصناف العلوم ، وتثبتها في قلبي وأن تستعمل بها بدني في ليلي ونهاري أبداً ما أبقيتني يا أرحم الراحمين ، ورُوي عن بكر بن خنيس قال : من

أحبّ أن يقرأ القرآن ، ولا ينسى منه شيئًا بإذن الله عزّ وجلّ فليقل : اللهم افتح علينا رحمتك ، وانشر علينا رحمتك ، وعن سُنَيد قال : مَن أحبّ أن لا ينسى شيئًا فليقل : (سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) . وقال بعض الصالحين : إذا قرأتَ شيئًا ثمَّ قمتَ عنه فقل : اللهمّ إني أستودِعك ماقرأتُه فارْدُدْهُ عليّ وقتَ حاجتي إليه ، وصلى اللهُ على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .(1)

وغسل الرَّأس يزيدُ في الحفظ ، وتركه ينقص من الحفظ ، ومن أراد أن يحفظ العلم فعليه بخمس خصال : صلاة الليل ولو ركعتين ، والدَّوام على الوُضوء ، والتقوى في السرّ والعلانية ، وأن ينوي بأكله القوَّةَ على الطاعة ، والسّواك في كلّ صلاة وعند تغيّر الفم ، ومن كتب آيةَ الكرسي في كفه اليسرى بيده اليمنى سبع مرّاتٍ بزعفران في كلّ مرّة يلحسها بلسانه لم ينس شيئًا أبداً ، ومن قال أربعين مرّةً مساءً : اللهمّ اجعل نفسي نفساً طيبةً طائعةً حافظةً تؤمنُ بلقائك وتقنع بعطائك وترضى بقضائك لم ينسَ شيئًا أبداً ، ومن قال عند رفع ما يقرأه سبحان الله والحمدُ لله ولا إلهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكبرُ ولا حول ولا قوّةَ إلاّ بالله العليّ العظيم عددَ كلّ حرفٍ كُتب ويكتب أبدَ الآبدين ، ودهرَ الدَّاهرين ، فإنه لا ينسى منه شيئًا أبداً ، ومما يفيدُ للحفظ قولك عقبَ كلّ صلاة : آمنتُ بالله الواحد الأحد ، الحقّ المبين لا شريك له وكفرتُ بما سواه انتهى .

---

(1) وتقدّم إذا قرأ كلَّ يوم سبعًا من القرآن لم ينسه أبداً ، وذكر ابن الحاج في مدخله : أن مَن قرأ ما يحفظه في صلاته لم ينسه أبداً .

القسم الثاني

آدابها في درسها واشتغالها

فمنها أن لا يزال كلٌّ منها مجتهداً في الاشتغال قراءة ومطالعة وتعليقاً ومباحثة ومذاكرة وفكراً وحفظاً واقراءً وتصنيفاً ان تأهل لها . ووظائف الأوراد في كل الأحوال .

ومنها أن لا يخلّ بوظيفته من حضور درس ومذاكرة وقراءة ونحوها ولو لعروض مرض خفيف ، أو ألم لطيف ، وليستشف بالعلم وليشتغل بقدر الإمكان كما قيل :

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحياناً فننتكس

هذا والحكايات عن السلف في ارتكابهم الأهوال في طلب العلم مشهورة ، مدوّنة في كتب التواريخ والسير ومسطورة .

حكى الإمام عبد الحميد بن عيسى الخسرو شاهين تلميذ الإمام فخر الدين الرازي عن جلالة الإمام واجتهاد طلبته : أنه صحب طلبة الإمام في يوم ثلج أبيض ، وثونات (١) ياسمينية على الأرض تنفض ، والثلج قد أبطل كل حركة ، وكيف لا وهو بلا شك كافور ، والسحائب عم عطاؤها في البلد ، فساوى بين مستفل الأرض وشرفات السور ، وهمتهم مع ذلك لم تخمد نيرانها ، ولم تنثر عن سماع كلام الإمام آذانها ، وإن عامت الأرض لكثرة الماء ، وعمت الجدران سحائب السماء ، وأبت همتهم أن تبطل فوائد الإمام ، ولو بطلت منهم الحواس الخمس ، ونفوسهم أن تغيب عن كلماته وإن غابت تحت الغمام عين الشمس ، ووضعوا على رؤوسهم كساء يمنع وصول المطر ، وفتحوا المحصول (٢) وشرع واحد

(١) لعله : وثياب .

(٢) أي كتاب المحصول .

يقرأ ثمّ واحدٌ ، والإمامُ لا يُدْني رأسَه من الكوّة إلاّ لمن يرتضيه ، فمنهم من يجيبه ، ومنهم مَن يقرأ إلى آخر درسه والإمامُ لا يلتفت إليه ، ولا ينظرُ فيه ، تمرينًا منه رحمه اللهُ لهم على الآداب ، وتعريفًا لمقدار العلم ، وإنِ اقتحمَ ذُو العزيمة الأهوالَ وظن أن همّتَه تعلو على السّحاب .

ومنها أن يجتهدَ أن لا يحضر مجالسَ الدّرسِ إلاّ متطهّرًا من الحدَث والخبث ومطيّبًا بدَنه وثوبَه ، قاصدًا بذلك تعظيمَ العلم ، وتبجيلَ الشّريعة . وإن كان في مسجد نوى في ابتداء جلوسه الاعتكاف .

ومنها أن لا يسألَ أحدًا تعنّتًا وتعجّزًا فإنهُ لا يستحقُّ جوابًا ، وسيأتي النّهيُ عن ذلك .

ومنها أن يتصوّرَ ويتأمّلَ ويُهذّبَ ما يريدُ أن يوردَهُ ، أو يقرّرَهُ ، أو يُسألَ عنه قبلَ إبرازه والتفوّهِ به ، ليأمنَ من صدُورِ هفوةٍ ، أو زلّةٍ ، أو وَهمٍ ، أو انعكاسِ فَهم ، لا سيما إن كان هُناك مَن يخشى منه أن يصيرَ ذلك عليه وصمةً ، ويجعله عند نُظرائه ومَن يحسدُه وسْمةً ، واللهُ هو الموفّقُ ، وهُوَ اللّطيفُ الخبير .

ومنها أن لا يستنكفَ من التّعلّم والإستفادة ممن هو دونه في منصبٍ أو سنٍّ أو نسبٍ ، أو شهرةٍ أو دِينٍ ، أو في علم آخر ، بل يحرِص على الفائدة ممّن كانت عندَهُ ، فقد كان كثيرٌ من السّلف يستفيدون من تلاميذهم ما ليس عندهم . قال الحميدي وهو تلميذُ الشافعي : صحبتُ الشافعيّ من مكّةَ إلى مصرَ فكنتُ أستفيدُ منه المسائل ، وكان يستفيد مني الحديث . وقال أحمد بنُ حنبل : قال لنا الشافعي : أنتم أعلمُ بالحديث مني ، فإذا صحّ عندكم الحديثُ فقولوا لي حتى آخذ به ، وقد ثبتَ في الصّحيحين وغيرها روايةُ جماعة من الصّحابة عن التابعين وروى جماعاتٌ من التابعين عن تابع التابعين ، وهذا عمرو بن شعيب ليس تابعيًّا ، وقد روى عنه أكثرُ من سبعين من التابعين ، وأبلغ من هذا ما ثبتَ في الصحيحين من أنّ رسول اللهصلى الله عليه وسلم قرأ : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا

عَلَى أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه ، وقال : أمرني الله أن أقرأ عليك ، هذا وقد استنبط العلماء من هذا الحديث فوائد :

الأولى : بيان التواضع من الفاضل بقراءته على المفضول ، قال صلى الله عليه وسلم : الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها التقطها ، وفي رواية : فهو أحق بها . وقال سعيد بن جبير : لا يزال الرجل عالما ما تعلم ، فإذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده ، فهو أجهل ما يكون . وأنشد بعضهم :

وليس العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل

الثانية : أن لا يستحي من السؤال عما لا يعلم . وعن مجاهد : لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر .

الثالثة : الانقياد إلى الحق بالرجوع عند الهفوة ، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل .

الرابعة : ترك المراء والجدال ، وجعل الأخبار الواردة في ذلك نصب عينيه . عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا زعيم ببيت في ربض الجنة ، وببيت في وسط الجنة ، وببيت في أعلا الجنة ، لمن ترك المراء وإن كان محقا ، وترك الكذب وإن كان مازحا ، وحسن خلقه والأخبار في ذلك كثيرة والله أعلم .

النوع الثاني

آداب يختص بها المعلم ، وقد يشاركه في بعضها المتعلم

قال الله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) . وقال تعالى : (الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا) . وفي الصحيح : ليبلغ الشاهد الغائب . ويتعين على طالب العلم أن لا ينتصب للتدريس حتى تكمل أهليته ، واعلم أن آدابه تنقسم إلى ثلاثة أقسام : آدابه في نفسه ، وآدابه مع طلبته ، وآدابه في درسه .

القسم الاول

آدابه في نفسه ، وتقدم منها جملة في الآداب المشتركة ، ونذكر هنا ما يختص بها غالبا

فمنها أنه يتعين على طالب العلم أن لا ينتصب للتدريس حتى تكمل أهليته ويشهد له بذلك مشايخه ، ففي الخبر الصحيح : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور . وقال الشبلي : من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه . وعن أبي حنيفة : من طلب الرئاسة في غير حينه لم يزل في ذل ما بقي . ولبعضهم :

تصدر للتدريس كل مهوس ... جهول تسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ... ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى استامها كل مفلس

ومنها أن لا يطلب على تعليمه اجراً ، ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً . قال تعالى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) .

ومنها أن لا يذل العلم ، ولا يذهب به إلى مكان ينسب إلى من يتعلمه منه وإن كان المتعلم كبير القدر ، بل يصون العلم عن ذلك كما صانه السلف وأخبارهم في هذا كثيرة مشهورة مع الخلفاء وغيرهم . قال الزهري هوان العلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم ، فإن دعت ضرورة ، وحسنت فيه نية صالحة فلا بأس ، وعليه يحمل ما جاء عن بعض السلف من ذلك ، وقد أجاد القاضي عبد العزيز الجرجاني في معنى ذلك :

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبت ... أقلب كفي إثره متندما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لي سلما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيتُ لكن لأُخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلةً ... إذن فاتّباعُ الجهل قد كان أحزما
ولو أنّ أهلَ العلم صانوه صانَهم ... ولو عظّموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا ... محيّاهُ بالأطماع حتى تجهّما

ومنها وقد مرّ معناه أن يكون عاملاً بعلمه غير مناقض فعلُه قولَه ولذلك قيل :

لا تنهَ عن خلق وتأتيَ مثلَه ... عار عليك إذا فعلتَ عظيمُ

قال تعالى : (أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) . قال عليّ رضي الله عنه : قصم ظهري عالمٌ متهتكٌ ، وجاهلٌ متنسكٌ ، فالجاهل يغشّ الناسَ بتنسكه ، والعالم ينفّرهم بتهتكه ، ولبعضهم في معنى ذلك :

فسادٌ كبيرٌ عالم متهتك ... وأكبر منه جاهل متنسك
هما فتنةٌ للعالمين عظيمةٌ ... لمن بهما في دينه يتمسك

ومنها أن يستحضر في ذهنه كون التعليم آكدَ العبادات ليكون ذلك حاثّاً له على النية الصالحةِ ، والنفع العامّ للطلبة ، ولا ينبغي أن يمتنع من تعليم أحدٍ لكونه غيرَ صحيح النية ، فالامتناع من تعليمهم يؤدّي إلى تفويت كثير من العلم مع أنه يرجى ببركة العلم تصحيحها إذا أنس بالعلم ، وقد قالوا طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلاّ لله ، معناه كانت عاقبته أن صار لله .

القسم الثاني

آداب المعلم مع طلبته

فمن ذلك إذا لمح في المتعلم خيراً ، وأنس فيه رُشداً ، ينبغي له أن يؤدّبه على التدريج بالآداب السّنيّة ، والشيم المرضية ، والدقائق الخفية ، ويعوّده الصّيانة في جميع أموره : الكامنة والجلية ، فيحرّضه بالأقوال والأفعال على الإخلاص والصدق وحسن النيات ، ومراقبة الله تعالى في جميع اللحظات ، وأن يداوم

عَلَىٰ ذلك حتى ٱلممات ، ويعرفه أن بذلك تنفتح عليه أبواب ٱلمعارف ، وتنفجر من قلبه ينابيع ٱلحكمة وٱللطائف ، ويوفق للإصابة في قوله وفعله .

ومن ذلك أن يرغبه في ٱلعلم ، ويذكره بفضائله وفضائل ٱلعلماء ، وأنهم ورثة ٱلأنبياء ، وأنهم عَلَىٰ منابرَ من نورٍ يغبطهم ٱلأنبياء وٱلشهداء ، ونحو ذلك مما ورد في فضل ٱلعلم وٱلعلماء من ٱلآيات وٱلأخبار ، وٱلآثار وٱلأشعار ، ويرغبه مع ذلك بتدريج عَلَىٰ ما يعين عَلَىٰ تحصيله من ٱلاقتصار عَلَىٰ ٱلميسور ، وقدر ٱلكفاية من ٱلدُّنيا ، وٱلقناعة بذلك عن شغل ٱلقلب بٱلتعلق بها ، وتفريق ٱلهم بسببها .

ومن ذلك أن يحب له ما يحب لنفسه ، ويكره ما يكره لنفسه من ٱلشر ، ففي ٱلصحيحين : لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ . وعن ٱبن عباس رضي ٱلله عنهما : أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ عليَّ جليسي ٱلذي يتخطى ٱلناس حتى يجلسَ إليَّ ، لو ٱستطعتُ أن لا يقعَ ٱلذُّبابُ عليه لفعلتُ . ويعتني بمصالحه كاعتنائه بمصالح نفسه وولده ، ويجعله كولده في ٱلشفقة عليه ، وٱلإهتمام بمصالحه .

وربما وقع منه نقصٌ وسوءُ أدبٍ في بعض ٱلأحيان ، فيبسط له عذرَهُ بحسب ٱلإمكان ، وينبهه عَلَىٰ ما صدر منه بنصح وتلطُّف ، لا بتعنيف وتعسُّف ، قاصداً بذلك حسن تربيته ، وتحسين خُلُقه ، وإصلاح طويته .

ومن ذلك أن يزجره عن سوء ٱلأخلاق ، وٱرتكاب ٱلمحرمات ، وٱلمكروهات أو ما يؤدي إلى فساد حال ، أو ترك ٱشتغال ، أو إساءة أدب ، أو عِشرة من لا يليق ، ونحو ذلك بطريق ٱلتعريض وٱلتلويح ، لا بطريق ٱلتصريح ، وبطريق ٱلرحمة لا بطريق ٱلتوبيخ وٱلنقمة ، فإن ٱلتصريح يرفع حجاب ٱلهيبة ، ويورثُ ٱلجراءة عَلَىٰ ٱلهجوم بٱلخلاف ، ويهيج ٱلحرصَ عَلَىٰ ٱلإصرار ، وينبهك عَلَىٰ هذا قصة آدم وحوى عليهما ٱلسلام ، وهو قوله تعالى : (وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) . وفي سورة طٰه :

(فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) . وقد ورد لو مُنِعَ النَّاسُ عن فتِ البَعَر لفتوه ، وقالوا : ما نُهينا عنه إلاَّ وفيه شيءٌ . ولبعضهم :

النفس تهوى من يجورُ وتعتدي والنفس مائلةٌ إلى الممنوع
ولكلّ شيءٍ تشتهيه طلاوةٌ مدفوعة إلاَّ عن المدفوع

والنظر إرشاد رسول الله صلى الله عليه ، وتلطفه مع الأعرابي الذي بال في المسجد ، ومع معاوية ابن الحكم لما تكلّم في الصّلاة [1] فان أنزجر لذكائه بالإشارة فذاك ، وإلاّ نهاه سرّاً ، فإن لم ينته نهاه جهراً ، ويغلظ القول عليه إن اقتضاه الحال لينزجر هو وغيره ، ويتأدّب به كلّ سامع ، فإن لم ينته فلا بأس حينئذ بطرده والإعراض عنه إلى أن يرجع ، وكذلك يتعهده بإفشاء السلام ، وحسن التخاطب في الكلام ، وبالجملة فكما يعلمهم مصالح دينهم ، لمعاملة الله يعلمهم مصالح دُنياهم ، لمعاملة الناس ليكمل لهم فضيلة الحالتين وبالله التوفيق .

ومن ذلك أن لا يتعاظم على المتعلمين ، بل يلين لهم القول ، ويتواضع لهم قال تعالى : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) . وقال صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا . والأحاديثُ في التواضع ولين الجانب كثيرةٌ ، وهذا التواضع لمطلق الناس ، فكيف بهؤلاء الذين هم كأولاده مع ملازمتهم واعتمادهم عليه في طلب العلم ، ومع ما هم عليه من حقّ الصّحبة ، وحرمة التردُّد ، وشرف المحبة ، وصدق التودد ، وفي الخبر عنه صلى الله عليه وسلّم : عَلِّمُوا وَلاَ تُعَنِّفُوا فَإِنَّ الْمُعَلِّمَ خَيْرٌ مِنَ الْمُعَنِّفِ . وعنه صلى الله عليه وسلم : لِينُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ وَلِمَنْ تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ .

ومن ذلك أن يُوقّر طلبته ويُعظّمهم ، ويحسّن خلقه معهم ، ويُرحّب بهم

---

(١) أي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّ هٰذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا كَلاَمُ النَّاسِ .

إذا لقيهم ، ويُسلّم عليهم بالبشاشة ، وطلاقة الوجه ، ويحسن إليهم بعلمه وماله وجاهه ، بحسب التيسير ، وينبغي أن يُخاطبَ كلاًّ منهم ، لاسيما الفاضل للتمييز بكنيته ونحوها من أحبّ الأسماء إليه ، وما فيه من تعظيم و توقير .

ففي الخبر عن عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكني أصحابه إكراماً لهم ، وجاء كثيراً مخاطبته لأبي بكر رضي الله عنه بالصدّيق فإن ذلك ونحوه أشرح صدورهم ، وأبسط لسؤالهم . وكان البويطي يدني القراء ويقربهم إذا طلبوا العلم ، ويعرفهم فضل الشافعي ، وفضلَ كتبه ، ويقول : كان الشافعي يأمر بذلك ويقول : اصبروا للغرباء وغيرهم من التلاميذ . وقيل : كان أبو حنيفة أكرمَ الناس مجالسةً وأشدّهم إكراماً لأصحابه ، وإذا غاب أحدُهم غيبةً زائدةً عن العادة سأل عنه ، فإن لم يخبر عنه أرسل إليه أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل ، وإن كان مريضاً عاده ، أو في غم خفض عنه ، أو مسافراً تفقد أهله ، وتعرّض لقضاء حوائجهم ووصلهم بما أمكن .

ومن ذلك ينبغي أن يستعلم أسماء طلبته ، وحاضري مجلسه وأنسابهم ، ومواطنهم وأحوالهم ، وأن يكون سمحاً ببذل ما حصله من العلم ، سهلاً بإلقائه ، متلطفاً في إفادة طالبيه ، مع إرشادٍ إلى المهمات ، وتحريضٍ على حفظ ما يبذله لهم من الفوائد ، ولا يدخر عنهم ما يحتاجون إليه ، أو يسألون عنه ، لأنّ ذلك ربما يوحش صدورهم ، وينفّر قلوبهم ، وكذلك لا يلقي لهم شيئاً لم يتأهلوا له لأن ذلك يبدد أذهانهم ، ويفرّق افهامهم ، فإن سأله الطالب من ذلك شيئاً فيعرفه انّ ذلك يضرّه ، وانه لم يمنعه شُحّاً ، بل شفقة ونُصحاً ، ثم يُرغبه في التحصيل ليتأهلَ لذلك . وقد روي في تفسير قوله تعالى : (ولٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) . إنه الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره .

ومن ذلك صدُّ المتعلّم أن يشتغل بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين ، وفرض عينه : إصلاح ظاهره وباطنه .

ومن ذلك أن يكون حريصاً على تعليم الطلبة مهتماً بذلك مؤثراً ذلك على

حوائجه ومصالحه ، ويفهم كلّ واحدٍ بحسب فهمه ، ولا يبسط له الكلام بسطاً لا يضبطه حفظه ، ولا يقصّر به عما يحتمله بلا مشقّة ، ويُخاطب كلاًّ على قدر درجته وفهمه وهمته ، فيكتفي للحاذق بالإشارة ، ويوضح لغيره بالعبارة ، ويكررها لمن لا يفهمها إلاّ بتكرار ، ويبدأ بتصوير المسألة ، ثمّ يوضحها بالأمثلة ويقتصر على ذلك من غير دليل ولا تعليل ، فإن سهل عليه الفهم فيذكر له الدليل والتعليل ، والمأخذ منه والمدرك ، ويبيّن الدليل المعتمد ليعتمد ، والضعيف لئلا يغتر به ويعتقد ، ويُبيّن أسرار حكم المسألة وعللها وتوجيه الأقوال ، ويبين الفرق بين المسألتين ، ومأخذ الحكمين ، ويبين ما يتعلّق بالمسألة من النكت اللطيفة ، والألغاز الظريفة ، والأمثال والأشعار واللغات وما يرد عليها ، أو على عبارة مصنفها ، وينبه على غلط من غلط فيها من حكم أو تخريج ، فيقول مثلاً : هذا هو الصواب أو الصحيح ، وأما ما ذكره فلان فغلط أو ضعيف قاصداً بذلك النصيحة لا التنقيص لمصنفه .

ومن ذلك أن يذكر لهم قواعد الفنّ التي لا تنخرم مطلقاً ، أو غالباً مع مستثنياتها أن لو كانت كقولنا : إذا اجتمع سبب ومباشرة ، قدّمنا المباشرة على السبب في الضمان ، وإن اليمين على المدعى عليه إذا لم تكن بينةٌ إلاّ في القسامة . وإذا اجتمع قولان : جديد وقديم فالعمل بالجديد إلاّ في مسائل معدودة المشهور منها أربع عشرة مسألة ، وأوصلها ابن الملقن إلى أكثر من ثلاثين ويذكرها أو ما حضره منها ، وإن مَن قبض شيئاً لغرضه لا يُقبل قوله في الردّ إلى المالك ، ومن قبضه لغرض المالك قُبل قوله في الردّ إليه لا إلى غيره . وإن الحدود تسقط بالشبهة . وإن الاعتبار في اليمين بالله تعالى أو الطلاق أو العتاق أو غيرها بنيّة الحالف إلاّ أن يكون المستحلِف قاضياً فاستحلفه بالله لدعوى اقتضته فالاعتبار بنية القاضي ، أو نائبه المستحلِف إن كان الحالف يوافقه في الاعتقاد وإلاّ فوجهان . وإن كل يمين على نفي فعل الغير فهي على نفي العلم إلاّ من ادّعي عليه أن عبده جنى فيحلف على البت على الأصح ، أو بهيمته جنت فيحلف

عَلَى ٱلْبَتِّ قطعاً . وإن ٱلسيد لا يثبت له مال في ذمّة عبده ٱبتداءً ، وفي ثبوته دواماً وجهان . وكلّ عبادة يخرج منها بفعل منافيها ومبطلها إلاّ ٱلحجّ والعمرة . وكلّ وضوء يجب فيه ٱلترتيب إلاّ وضوءاً تخلله غسل ٱلجنابة (١) وإن ما لا يجب ٱلتعرّض له في ٱلعبادة جملةً ولا تفصيلاً لا يضرّ ٱلخطأُ فيه . وما يجب ٱلتعرُّض له تفصيلاً ، أو جملةً يضرُّ ٱلخطأُ فيه :

ٱلأوّل كخطأ الإمام في تعيين تابعه لا يضرّ .

والثاني كخطأه من ٱلصوم إلى ٱلصلاة ، أو من صلاة فرض معين إلى غيره .

والثالث كخطأ ٱلمأموم في تعيين ٱلإمام .

وان إشارة ٱلأخرس كنطقه إلاّ في أربع مسائل : الشهادة في ٱلأصحّ ، وإبطال ٱلصلاة ، وٱنعقاد ٱليمين ، وإذا حلف لا يكلم زيداً فأشار إليه . وإن إشارة ٱلناطق ٱلقادر عَلَى ٱلعبارة لغوٌ إلاّ في أربع مسائل : الأمان ، وإشارة ٱلشيخ في رواية ٱلحديث ، وقوله : أنتِ طالقٌ هكذا وأشار بأصابعه ، وإذا سُلّم عَلَى ٱلمصلي يرد بٱلإشارة . نصّ عليه في ٱلقديم ، وأشباه ذلك .

وكذلك يبين له جملاً مما يحتاج إليه وينضبط من أصول ٱلفقه كترتيب ٱلأدلة من ٱلكتاب وٱلسُّنة وٱلإجماع وٱلقياس وٱلاستصحاب عند من يقول به ، وأنواع ٱلأقيسة ودرجاتها ، وحد ٱلأمر وٱلنهي وٱلعموم وٱلخصوص وغيرها ، وأحكام ذلك وقواعده ، وجملاً من أسماء ٱلمشهورين من ٱلصحابة فمن بعدهم من ٱلعلماء وٱلأخيار ، وتراجمهم ووفياتهم ، وضبط ٱلمشكل من أنسابهم وأسمائهم وٱلمشتبه من ذلك ، وٱلمختلف وٱلمؤتلف ، ونحو ذلك . وجملاً من ٱلألفاظ ٱللغويّة وٱلعرفية ٱلمتكررة في ٱلفقه ضبطاً لمشكلها ، وخفي معانيها فيقول : هي مفتوحةٌ ، أو مضمومةٌ ، أو مكسورةٌ ، مخففةٌ أو مُشدّدةٌ ، مهموزة أو لا ، عربية أو عجمية أو معرّبة وهي ٱلتي أصلها عجمي وتكلمتْ فيها ٱلعرب ، مصروفة أم لا ، مشتقة أم لا ، مشتركة أم لا ، مترادفة أم لا .

---

(١) يتأمل صورة مسألته .

وأن المهموز والمشدد يخففان أم لا ، وأن فيها لغة أخرى أم لا ، ويبين ما ينضبط من قواعد التصريف ونحو ذلك . وإذا وقعت مسألة غريبة لطيفة ، أو مما يسأل عنه في المعاياة نبه عليها ، وعرفهم حالها ، ويكون تعليمه إياهم كل ذلك تدريجاً شيئاً فشيئاً ، فيجتمع لهم مع طول الزمان جمل كثيرة والله أعلم .

ومن ذلك أن يحرضهم على الاشتغال في كل وقت ، ويطالبهم بإعادة محفوظاتهم فمن وجده حافظاً مراعياً لمحفوظاته ومعياته وقواعده أثنى عليه وأشاع ذلك ، ومن وجده مقصراً عنفه وأعاده له ليحفظه حفظاً رابعاً .

ومن ذلك ينبغي له أن يطرح على أصحابه ما يراه من مستفاد المسائل ويختبر بذلك أفهامهم ، ودليل ذلك ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن من الشجر شجرة ، الحديث .

ومن ذلك إذا فرغ من شرح درس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة ، وإعادة ذكر ما أشكل منه ليمتحن بذلك فهمهم وضبطهم لما شرحه لهم ، فمن ظهر استحكام فهمه شكره ، ومن لم يفهم تلطف في إعادته ، والمعنى أنه ربما استحى من قوله لم أفهم ، وسبب هذا : إما رفع كلفة الإعادة على الشيخ ، أو لضيق الوقت ، أو حياء من الحاضرين ، أو كيلا تتأخر قراءة بعضهم بسببه ، ولذلك قيل : لا ينبغي للشيخ أن يقول للطالب هل فهمت إلا إذا أمن من قوله نعم قبل أن يفهم ، وينبغي للشيخ أن يأمر الطلبة بالمرافقة في الدروس ، وإعادة ما وقع من التقرير بعد فراغه ليثبت في أذهانهم ، وإذا فهم الشيخ فائدة من البعض في البحث وإن كانت من صغير فينصفه بها ، ويشكره عليها ، فإن ذلك من بركة العلم ، ولا يظهر الشيخ للطلبة تفضيل بعضهم على بعض لا سيما إذا تساووا في الصفات : من سن أو فضيلة ، أو تحصيل أو ديانة . فترجيح بعضهم على بعض مما يوغر الصدور ، فإذا ظهرت فضيلته يثني عليه في حد ذاته من غير تصريح بأن فلاناً أفضل من فلان فاعلم ذلك .

ومن ذلك أن يقدّم في التعليم الأسبق فالأسبق إذا ازدحموا ، ولا يقدّمه بأكثر من درس إلاّ برضى الباقين ، ويختار إذا كانت الدُّروسُ في كتابٍ واحدٍ باتفاق منهم وهو المسمى بالتقسيم أن يبدأ في كلّ يومٍ بدرس واحدٍ منهم فإن الدّرس الأوّل ربما حصل فيه من النّشاط والتّقرير ما لا يحصل في الباقي إلاّ إذا علم من نفسه عدمَ الملالة ، وبقاء النشاط ، فيرتّب الدُّروسَ ترتيبَ الكتاب وإن رأى مع ذلك تقديمَ الأسبق ليحضّ المتأخرَ على التقدّم كان حسنًا ، ولا يقدّم أحداً في نوبة غيره ، ولا يؤخّره عن نوبته إلاّ إذا رأى في ذلك مصلحةً ، فإن سمح بعضهم لغيره في نوبته فلا بأس ، وإن جاءوا معاً وتنازعوا أقرع كما سيأتي إن شاء الله في القسم الثالث من النوع الثالث .

ومن ذلك إذا سلك الطالب فوق ما يقتضيه حاله ، وخاف ضجره أوصاه بالرّفق بنفسه ، وكذلك إذا ظهر له منه نوع سآمة أو ضجر أمره بالرّاحة ولا يشير على الطّالب بتعلّم ما لا يحتمله فهمه أو سنّه ، ولا بكتاب يقصُرُ عنه ذهنُه ، فإن استشاره من لا يعرف حاله في قراءة فنٍّ مشكلٍ أو كتاب مشكلٍ لم يُشِرْ عليه بشيءٍ حتى يجرّب ذهنه ، ويعلم حاله ، فإن لم يحتمل الوقتُ التأخير أشار عليه بكتابٍ سهلٍ من الفنّ المطلوب ، فإن رأى فهمه جيّداً نقله إلى كتاب يليقُ بذهنه ، لأنّ نقل الطالب الذّكي يزداد به فهمُه واجتهادُه وانبساطه ، ونقلُ الطّالب غير الذّكي يكلُّ فهمه ونشاطَه ، ولا يمكّن الطّالبَ من الاشتغال في فنين أو أكثر إذا لم يضبطْهما ، بل يقدّم الأهمّ فالأهمّ ، وإذا غلب على ظنّه أنه لا ينتبح عليه في ذلك الفنّ أشارَ عليه بتركه والانتقال إلى غيره مما يُرجى فلاحُه فيه ، وإذا كان الشيخ متكفلاً ببعض العلوم ، فلا يُقبّح للطّالب باقي العلوم التي لا يحسنها ، إذ من عادة معلّم اللغة تقبيحُ الفقه ، ومعلّم الفقه تقبيحُ علم الحديث والتفسير ، بل يوسّع على الطالب طريقَ التعلّم مطلقاً .

ومن ذلك أن لا يتأذّى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره . قال النووي: وهذه مصيبةٌ يُبتلى بها جهلةُ المعلّمين لغباوتهم ، وفسادِ نيّتهم وإرادتهم بالتعليم

غيرَ وجه الله ، وهذا إذا كان المعلم الآخر أهلاً ، فإن كان فاسقاً أو مبتدعاً أو كثيرَ الغلط فليحذره من الاغترار به والله يعلم المفسدَ من المصلح والله تعالى أعلم .

القسم الثالث

آدابه في درسه

فمنها إذا عزم على التدريس ، أن يتطهّر من الحدَث والخبث ، فلا يلقي الدّرسَ إلاَّ على الطّهارة ، وأن ينظّف ويطيبَ بدنَه وثوبه ، ويختار له لبس البياض ، ولا يعتني بفاخر الثّياب ، ولا يقتصر على خَلَقٍ ينتسب صاحبُه إلى قلّة مروءة ، وأن يتطيّب ويسرّح لحيته ، ويزيل كلّ ما يشينه . كان الإمام مالك رضي الله عنه إذا جاءه النّاسُ لطلب الحديث اغتسل وتطيّبَ ولبس ثياباً جُدُداً ووضع رداءه على رأسه ، ثمّ يجلس على منصّة ، ولا يزال يبخّر بالعود حتى يفرغ وقال : أحبُّ أن أعظّمَ حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها قال ابن جماعة : يصلي ركعتي الاستخارة وينوي نشرَ العلم وتعليمه وبث الفوائد الشّرعية ، والاجتماع على ذكر الله ، وإذا خرج من بيته للدّرس فيدعو بما ورد في الصحيح عن النّبي صلى الله عليه وسلم فيقول : اللّهمَّ إنّي أعوذُ بكَ أنْ أَضِلَّ أوْ أُضِلَّ ، أوْ أزِلَّ أوْ أُزِلَّ ، أوْ أظْلِمَ أوْ أُظْلَمَ ، أوْ أجْهَلَ أوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ ، عزّ جارُكَ ، وجَلّ ثَناؤُكَ ، ولاَ إلهَ غيرُكَ ، ثم يقولُ : بسم الله وَبِاللهِ حَسْبِيَ اللهُ توَكّلْتُ علَى اللهِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوّةَ إلاَّ باللهِ العَلِيِّ العَظِيم ، اللّهمَّ ثبّتْ جَنَانِي ، وَأدِرْ علَى الحقّ لساني . ويُديمُ ذكرَ الله تعالى إلى أن يصل إلى المجلس ، فإذا وصل يُسلم علَى مَن حضر ، ويصلي ركعتين ، فإن كان مسجداً تأكّدتْ الصّلاة وإن كان وقتَ كراهة ، ثمّ يجلسُ بوَقارٍ وسكينة وتواضع وخشوع ، والأولى أن يكون مستقبل القبلة كيف اتّفق لا مقعياً الإقعاء المكروه

في الصلاة ولا مستوفزاً ، ولا رافعاً إحدى رجليه على الأخرى ، ولا مادًّا رجليه أو إحداهما من غير عذر ، وأن يصون بدنه عن الزخرف والتنقل عن مكانه ، ويديه عن العبث والتشبيك بهما ، وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة ويتقي المزاح وكثرة الضحك فإنه يقلل الهيبة ويسقط الحشمة .

ومنها أن يحسن خلقه مع جلسائه ويوقر فاضلهم بعلم أو سن أو صلاح أو شرف أو نحو ذلك ، ويرفعهم في المجلس على حسب تقديمهم في الإمامة ويكرمهم بحسن السلام ، وطلاقة الوجه ، والبشاشة والابتسام وبالقيام لهم على سبيل الاحترام . ولشيخ الإسلام محيي الدين في الترخيص فيه كتاب مستقل شفى فيه الغليل ، وأتى فيه بواضح الدليل ، وأجاب عما يوهم كراهته نفع الله ببركاته .

ومنها أن يقدم تلاوة القرآن العظيم في البحث والتدريس ، ثم إن كان في مدرسة اتبع شرطها ، ويدعو عقيب القراءة لنفسه وللحاضرين وسائر المسلمين بعد أن يدعو العلماء الماضين ، ومشايخه ووالديه والحاضرين ولواقف المكان ، وكان بعضهم يؤخر ذكر نفسه في الدعاء عن الحاضرين تأدبًا والكل حسن ، وقد عمل قوم بالأول ، وقوم بالثاني انتهى .

ويستحب لهم إذا اجتمعوا للعلم قراءة سورة . وكان الحافظ الشهاب ابن حجر يستفتح مجلس إملائه بسورة الأعلى ، وسئل عن الحكمة في قراءتها فقال : تبعت في ذلك شيخنا العراقي ومناسبتها : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ) . وقوله : (فَذَكِّرْ) وقوله : (إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ) . ويستحب إذا اجتمع صاحبان أن يقرءا قبل التفرق سورة العصر ، ولمن رأى ما يحب أن يقول : الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات ، أو يكره : الحمد لله على كل حال ، أو أعجبه شيء : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ولمن أتاه خبر صالح : اللهم لك الحمد شكرا ، ولك المن فضلا ، ولمن غضب : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولمن قام من مجلسه : سبحان الله وبحمده . وفي رواية : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد

أن لا إله إلاّ أنتَ أستغفرُكَ وأتوبُ إليك . وفي رواية : اللهمّ تُبْ عليّ واغفرْ لي ثلاثاً . وفي رواية : سبحان ربّكَ ربّ العزّة عمّا يَصِفون وسلامٌ على المرسلين والحمدُ لله ربّ العالمين .

ومنها إذا تعدّدت الدُّروسُ أن يُقدّمَ أشرفَ العلوم وأهمّها ، فيُقدّم التّفسيرَ ثم الحديثَ ثم الفقهَ ، ثم الأصولَ أصولَ الدّين ثم أصولَ الفقه ثم المذهب ثم الخلاف أو النّحو أو الجدَل ، وبعضهم أخّر الجدَل عن الخلاف . وكان بعضهم يختم درسه برقائق تُفيدُ تطهيرَ الباطن ، فإن كان في مدرسة لواقفها في الدُّروس شرطٌ اتّبعه ولا يُخلّ بما هو أهمّ ما بنيت له تلك البنية ووقفت لأجله .

ومنها أن لا يطيلَ مجلسه تطويلاً يملّهم أو يمنعهم فهم الدّرس وضبطه ، لأنّ المقصودَ إفادتهم وضبطهم ، فإذا صاروا إلى هذه الحالة فات المقصودُ ، ولا يقصره تقصيراً يخلّ ، فيراعي المصلحة في التّطويل والتّقصير .

ومنها أن لا يدرس وبه ما يزعجه ويذهب استحضارَه كمرض أو جوع أو عطش أو مُدافعةِ حدَثٍ ، أو شدّة فرح أو غمّ أو غضب أو نُعاسٍ أو قلَقٍ ولا في حال برده المؤلم ، وحرّه المزعج ، فربّما أجاب أو أفتى بغير الصواب ، ولأنّه لا يتمكن مع ذلك من استيفاء النّظر ، ولا يكون في مجلسه ما يؤذي الحاضرين بل يكون واسعاً مصوناً من الحرّ والبرد والرّيح والغبار والدّخان ونحو ذلك .

ومنها ينبغي مُراعاة مصلحة الجماعة في تقديم وقت الحضور وتأخيره في النّهار ، وأفتى بعضُ أكابر العلماء أن المدرّسَ إذا درّس قبلَ طلوع الشمس أو أخّره إلى بعد الظّهر لم يستحقّ معلومَ التدريس إلاّ أن يقتضيه شرطُ الواقف لمخالفته العُرفَ المعتادَ ، ولا يرفع صوته زيادةً على الحاجة ، ولا يخفضه خفضاً يمنعهم من كمال الفهم . رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنّ اللهَ يحبُّ الصّوتَ الخفيضَ ويُبغضُ الصّوتَ الرّفيعَ . قال أبو عثمان محمدُ بنُ الإمام الشافعي رضي الله عنهما : ما سمعتُ أبي يُناظرُ أحداً قطّ فرفع صوته ، أي لم يرفع فوق العادة فإن حضر فيهم ثقيل السّمع ، فلا بأس بعلو صوته بقدر ما يُسمعه .

ومنها أن يصون مجلسه من اللغط ، وعن رفع الأصوات ، وسوء الأدب في المباحثة واختلاف جهات البحث . قال الربيع : كان الشافعي إذا ناظره أحد في مسألة فعدا إلى غيرها يقول : نفرغ من هذه المسألة ثم نعود إلى ما تريد . والقصد من البحث ظهور الحق ، وحصول الفائدة ، واستفادة البعض من البعض لا القيام مع النفوس والجدل والمماراة ، فإن ذلك مذموم شرعًا ، فلا يليق بأهل العلم تعاطي المناقشة بالمنافسة والشحناء ، لأن ذلك يورث العداوة والبغضاء ، بل يجب الاجتماع على الحق عملاً بقول الله تعالى : (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . ولينزجر من تعدى في بحثه ، وظهر منه سوء أدب ، أو لدد ، أو ترك إنصاف بعد ظهور الحق ، أو أكثر الصياح بغير فائدة ، أو أساء أدبه على غيره من الحاضرين أو الغائبين ، أو ترفع في المجلس على من هو أولى منه ، أو نام ، أو تحدث مع غيره ، أو ضحك ، أو استهزأ بأحد . وينبغي أن يكون له نقيب فطن كيس درب يرتب الحاضرين ومن يدخل عليه على قدر منازلهم ، ويوقظ النائم ، وينبه الغافل ، ويأمر بسماع الدروس والإنصات لها .

ومنها ان يلازم الإنصاف في بحثه وخطابه ، ويسمع السؤال من مورده على وجهه ، وإذا عجز السائل عن تقرير ما أورده لحياء ونحوه عبر الشيخ عن مراده ، وبين وجه إيراده ، ثم يجيبه عن ذلك السؤال ، ويفهمه إياه على أحسن منوال . وينبغي أن يتودد لغريب حضر عنده لينشرح صدره ، فإن للقادم دهشة .

ومنها إذا أقبل بعض الفضلاء وقد شرع في مسألة أمسك عنها حتى يجلس وإن جاء في أثناء بحثها أعادها له .

ومنها إذا سئل عن شيء لا يعرفه ، أو عرض في الدرس ما لا يعرفه فليقل لا أعرفه أو لا أتحققه أو لا أدري ، ولا يستنكف عن ذلك فمن علم العالم أن يقول فيما لا يعلم : لا أعلم والله أعلم . قال ابن مسعود رضي الله عنه : يا أيها الناس من علم شيئًا فليقل به ، ومن لا يعلم فليقل : الله أعلم . فإن من العلم

أن تقول لما لا تعلم : الله أعلم . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ . وقال عمر رضي الله عنه : نُهينا عن التكلُّف . وقال عليّ رضي الله عنه : إذا سُئلتم عما لا تعلمون فاهربوا . قالوا : كيف الهرب ؟ قال : تقولون الله أعلم . وقال ابن عباس : إذا ترك العالم لا أدري أُصيبت مقاتله ، وقد نظمه الإمام أبو بكر بن دُرَيْد فقال :

ومن كان يهوى أن يُرى متصدّراً ويكره لا أدري أصيبت مقاتلُهْ

وقال ابن عمرَ رضي الله عنه وقد سُئل عن شيء : لا أدري ثم أتبعها فقال : أتريدون أن تجعلوا ظهورنا لكم جسوراً في جهنم أن تقولوا : أفتانا بهذا ابنُ عمر . وقال ابن عمر أيضاً العلم ثلاثة : كتاب ناطقٌ ، وسنةٌ ماضيةٌ ، ولا أدري وقال بعضهم : تعلم لا أدري فإنك إن قلتَ لا أدري علموك حتى تدري ، وإن قلتَ أدري سألوك حتى لا تدري . قال شيخ الإسلام النووي كغيره : واعلم أن معتقد المحققين أن قول العالم لا أدري لا يضع منزلته بل هو دليلٌ على عظم محله وتقواه وكمال معرفته لأن المتمكن لا يضرّه عدم معرفته مسائلَ معدودة بل يُستدلّ بقول لا أدري على تقواه ، وأنه لا يجازف في فتواه ، وإنما يمتنع من لا أدري مَن قلّ علمه وقصرت معرفته وضعُفت تقواه ، لأنه يخافُ لقصوره أن يسقط من أعيُن الحاضرين . وهذه جهالة منه فإنه بإقدامه على الجواب فيما لا يعلمه يبوء بالإثم العظيم ، وهو مجازفٌ لجهله وقلة دينه . وفي الصحيح : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ » . وقد أدب الله تعالى العلماء بقصة موسى والخضر عليهما السلام حين لم يردّ موسى العلمَ إلى الله تعالى لما سُئل هل أحدٌ في الأرض أعلم منك .

ومنها ما جرت به العادة أن يقول المدرس عند ختم كلّ درس والله أعلم . قال ابن جماعة : الأَولى أن يقال قبلَ ذلك كلامٌ يُشعِر بختم الدّرس كقوله : وهذا آخره ، أو ما بعده يأتي ، ونحوِ ذلك ليكون قوله : والله أعلم خالصاً لذكر الله

ولقصد معناه . قال: ولهذا ينبغي أن يستفتح كلّ درسٍ ببسم ٱللّٰه ٱلرَّحمٰن ٱلرحيم ليكون ذاكراً لله في بدئه وختامه .

ومنها ينبغي للمدرّس أن يمكث قليلاً بعد قيام ٱلجماعة لئلا يزدحموا عند خروجهم ، ولأنه إن كان في نفس أحد بقايا سؤالٍ تأخّر وسأله .

النوع الثالث

آداب يختصّ بها ٱلمتعلّم وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام : آدابه في نفسه ، وآدابه مع شيخه ، وآدابه في مجلس درسه .

القسم الاول
آدابه في نفسه

منها أن يطهّر قلبه من ٱلأدناس ليصلح لقبول ٱلعلم وحفظه ، ويقصد بتعلّمه وجه ٱلله وٱلعمل وإحياء ٱلشريعة . قال صلى ٱلله عليه وسلم : إِنَّ فِي ٱلْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ ٱلْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ ٱلْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ ٱلْقَلْبُ . قالوا : تطييب ٱلقلب للعلم كتطييب ٱلأرض للمزارعة ، فبذلك ينمو وتظهر بركته ، وإلاّ فلا ينمو ولا يزكو ، كٱلزرع في أرضٍ بورٍ غير مطيّبة . وقال سهل بن عبد ٱلله : حرامٌ على قلبٍ أن يدخله ٱلنورُ وفيه شيءٌ مما يكره ٱلله عزّ وجلّ .

ومنها أن يغتنم التحصيل وقتَ ٱلفراغ وٱلنشاط وحالَ ٱلشباب وقوّة ٱلبدن ونباهة ٱلخاطر ، وقلة ٱلشواغل قبلَ عوارض ٱلبطالة وٱرتفاع ٱلمنزلة . روينا عن عمر رضي ٱلله عنه : تفقهوا قبلَ أن تُسوَّدوا أي تصيروا سادةً فتستحيوا من ٱلتعلم . قال ٱلشافعي رضي ٱلله عنه : تفقه قبلَ أن ترأسَ فإذا رأستَ فلا سبيل إلى ٱلتفقه . وجاء في ٱلخبر : مَثَلُ ٱلَّذي يتعلَّمُ ٱلعِلْمَ في صِغَرِهِ كَٱلنَّقْش

عَلَى الْحَجَرِ وَمَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ فِي كِبَرِهِ كَالَّذِي يَكْتُبُ عَلَى الْمَاءِ . وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه : ما أُوتيَ عالمٌ علماً إلاّ وهو شابٌّ ، وهذا باعتبار الغالب ، وإلاّ فمن كَبِر لا ينبغي له أن يُحجِمَ عن الطلبِ ، فإن الفضل واسعٌ والكرمَ وافرٌ . وقد قال الله تعالى : (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) . وقال تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) . وقال تعالى : (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا) إلى غير ذلك . وقصة القفّال واشتغاله في كِبَره بالعلم مشهورةٌ معلومةٌ مسطورةٌ . فيا هذا احذر التسويفَ في شبابك والكسل ، وسدّ على كِبَرك باب الرجاء والأمل ، واغتنم ما بقي من عمرك ، وما أحسنَ قول مَن قال :

بقيةُ العمر عندي ما لها ثمنٌ وإن مضى غير محمودٍ من الزمن
يستدرك المرءُ فيها ما أفات ويحـ ـيي ما أمات ويمحو السوءَ بالحسن

ومنها أن يقطعَ ما يقدرُ عليه من العلائق الشاغلة ، والعوائق المانعة عن تمام الطلب وكمال الاجتهاد ، ويرضى بما تيسّر من القوت ، وبما ستر مثله من اللباس وإن كان خَلَقاً ، فبالصبر على ضيق العيش ينال سعة العلم ؛ وتتفجر ينابيعُ الحكمة قال الشافعي رضي الله عنه : لا يطلبُ أحدٌ هذا العلم بالملك وعزّ النفس فيفلح . وقال أيضاً : لا يدرك العلم إلاّ بالصبر على الذلّ . وقال أيضاً : لا يصلح طلبُ العلمِ إلاّ لمفلس . ونقل الخطيب البغدادي عن بعضهم قال : لا ينال هذا العلم إلاّ من عطّل دكانه ، وخرّب بستانه ، وهجر إخوانه ، ومات أقربُ أهله فلم يشهدْ جنازَته . وهذا كله وإن كان فيه مبالغةٌ فالمقصود به أنه لا بدّ فيه من جمع القلب ، واجتماع الفكر . وقيل أمر بعضُ المشايخ طالباً بنحو مارواه الخطيب فكان آخر ما أمره به أن قال : اصبغ ثوبك كيلا يشغلك فكر غسله . ومما يقال عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : لو كُلّفتُ شراء بصلةٍ ، لما فهمتُ مسألة . وقال إمام الحرمين رحمه الله :

أخي لن تنال العلم إلاّ بستةٍ سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة(١) وتلقين أستاذ وطول زمان

فالعلمُ لا يعطيك بعضه حتى تعطيَه كلّك . وقد قيل على رواية وعُزبة : يشتغل بحقوق الزّوجة عن إكمال طلب العلم ، واحتجّ بحديث : خيرُكُمْ بعدَ المِائتين كلُّ خفيفِ الحاذِ ، قيل : يا رسولَ الله ومن خفيفُ الحاذ ؟ قال : مَنْ لا أهلَ لهُ ولا مالَ . قال سفيان الثوري : مَن تزوّج فقد ركب البحرَ فإن وُلد له فقد كُسر به . وعن إبراهيمَ بن أدهم : مَن تعوّدَ أفخاذَ النساء لم يُفلح . وعن بشر الحافي : مَن لم يحتج إلى النساء فليتقِ الله ولا يألف أفخاذهنّ . قال النووي رحمه الله : وهذا كله موافقٌ لمذهبنا إن لم يحتج إلى النكاح استُحبّ له تركه وكذا إن احتاج وعجز عن مؤنته . وفي الصحيحين عن أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ ، وقال صلى الله عليه وسلم : الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا اللهَ وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنَ النِّسَاءِ .

ومنها أن يتورّعَ في جميع شأنه ، ويتحرّى الحلالَ في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ، ليستنير قلبُه ويصلح لقبول العلم ، ولا يقنع لنفسه بظاهر الحِلّ شرعًا مهما أمكنه التورّع ، ولم تُلجئه حاجة بل يطلب الرّتبةَ العلية ، ويقتدي بالسلف الصالح في التورّع عن كثيرٍ مما كانوا يُفتون بجوازه . وأحقُّ من اقتُديَ به في ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حيث لم يأكلِ التمرةَ التي وجدها في الطّريق خشيةَ أن تكون من الصّدقة .

(١) قيل عن السلف هكذا : وغُربةٌ من التغريب عن الأهل ، لأن الفكرة إذا توزّعت قصرت عن إدراك الحقائق ، وقيل : وعُزْبة من العزوبية وهو صحيح أيضًا لئلا يشتغل بحقوق الزّوجة عن إكمال طلب العلم ، وقيل : وبُلْغَة من السعة في المال ، ولهذا قال الشافعي كما تقدّم : لو كلفتُ شراءَ بصلة ، ما تعلمت مسألة . فإذا كان معه بلغةٌ فكأنه ما تكلّف .

obeikandi.com

وينبغي له أن يستعمل الرُّخَص في مواضعها عند الحاجة إليها ، ووجود سببها ليُقتدى به ، فإن الله تعالى يحبُّ أن تؤتى رُخَصُه كما تؤتى عزائمه .

ومنها أن يترك العِشرة ، فإن تركها من أهمّ ما ينبغي لطالب العلم ، ولا سيما لغير الجنس ، وخصوصاً لمن كثُر لَعِبُهُ وقلّت فكرته ، فإنّ الطبعَ سرّاق ، وآفة العِشرة ضياعُ العمر بغير فائدة ، وذهابُ المرض والدّين والمال ، ولا يخالط طالبُ العلم إلاّ من يفيدُه أو يستفيدُ منه ، فإن عاشر من يُضيِّعُ عُمرَه معه بلا فائدة فليتلطّف في قطع عشرته قبلَ تمكنها ، فإن الأمور إذا تمكنت عَسُرت إزالتها .
ومن الجاري على ألسنة الفقهاء بل هو من القواعد : الدّفع أسهل من الرّفع ، فإن احتاج إلى المصاحبة فليكن الصاحبُ صالحاً ديِّناً تقيّاً ورِعاً ذكيّاً ، كثير الخير قليلَ الشرّ ، حسن المداراة ، قليل المماراة ، إن نسي ذكّره ، وإن ذكر أعانه ، وإن احتاج واساه ، وإن ضجر صبّره ، ومما يُنسب إلى الإمام علي بن أبي طالب :

لا تصحب أخا الجهل وإياكَ وإياهُ
فكم من جاهلٍ أردى حليماً حين واخاهُ
يُقاس المرءُ بالمرءِ إذا ما هو ما شاهُ
وللشيءِ على الشيءِ مقاييسٌ وأشباهُ

ولبعضهم :

إنّ أخاك الصدقَ مَن كان معكْ ومَن يضرُّ نفسه لينفعكْ
ومن إذا ريبُ زمانٍ صدعكْ شتّتَ شملَ نفسه ليجمعكْ

ومنها الحلم والأناة والصبر جُهْدَه مطلقاً في كلّ أحواله ، وأن يكون حريصاً على التعلم مواظباً عليه في جميع أوقاته : ليلاً ونهاراً ، حضراً وأسفاراً ، ولا يذهب شيئاً من أوقاته في غير العلم إلاّ بقدر الضرورة لأكلٍ ونوم قدراً لا بدّ منه ، واستراحة يسيرة لإزالة الملل ، وأداء حقّ الزوجة ، ومؤانسة الزائر وتحصيل القوت وغيره مما يحتاج إليه ، وليس بعاقل من أمكنه درجة وَرَثَة الأنبياء ثمّ فوّتها ، في صحيح مسلم عن يحيى بن أبي كثير : لا يُستطاع العلمُ براحة

الجسم . وفي الحديث : حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ . وكما قيل :

ولا بُدَّ دُون الشَّهد من إِبَرِ النَّحل

وكما قيل :

لا تحسب المجد تمراً أنت تأكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبِرا

ومنها أن تكون هِمَّتُه عالية فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير ، ولا يسوّف في اشتغاله ، ولا يؤخّر تحصيلَ فائدة وإن قلّت . وعن الرّبيع قال : لم أرَ الشافعيّ آكلاً بنهار ولا نائماً بليل لاهتمامه بالتّصنيف .

ومنها أن يحذر في ابتداء أمره من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء مطلقاً في العقليّات والسمعيات ، فإنه يُحيّرُ الذّهنَ ويُدهشُ العقلَ ، بل يُتقِنُ أوّلاً كتاباً واحداً في فنٍّ واحدٍ أو كتباً في فنونٍ كما مرّ إن احتمل عقله ذلك ، ولا ينتقل من كتابٍ حتى يتقنه ، ويحذر من التنقل من كتابٍ إلى كتاب قبلَ إتقانه من غير موجب فإنّه علامةُ الضجر وعدم الفلاح . أما من تحققت أهليّته وتأكدت معرفته فالأولى له أن لا يدع فنّاً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعها إلاّ وينظر فيه يطلع به على مقاصده وغايته ، ثمّ إن ساعده العمر طلب التّبحر فيه ، وإلاّ اشتغل بالأهمّ فالأهمّ ، فإنّ العلومَ متقاربةٌ وبعضها مرتبطٌ ببعض ، والشخصُ يعادي ما يجهله ولبعضهم :

تفنّن وخُذ من كلّ علم فإنما ... يفوقُ أمرُؤٌ في كلّ فنٍّ له علم

فأنتَ عدوٌّ للذي أنت جاهلٌ ... به ولعلمٍ أنت تتقنهُ سِلْمُ

والخليل بن أحمد في أخيه لما تعقب عليه فنّ الشعر :

لو كنتَ تعلم ما أقولُ عذرتني ... أو كنتُ أجهلُ ما تقول عذلتُكا

لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني ... وعلمتُ أنّك جاهلٌ فعذرتكا

الناسُ أعداءٌ لما جهلوا . قال تعالى : (وإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) . قال الغزالي : العمر لا يتسع لجميع العلوم ، فالحزم أن يأخذ من كلّ علم أحسنه ، ويصرف همّته وجلّ عمره في العلوم النافعة في الآخرة ،

وأشرف العلوم وغايتها علم معرفة الله ، وهو بحرٌ لا يدرك غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الذين يلونهم .

ومنها أن لا يحمّل نفسه في الاشتغال ما لا طاقة له به مخافة الملل والسآمة ، بل يكون أمره قصداً ، وهذا يختلف باختلاف الناس ، وكلّ إنسان أبصر بنفسه .

القسم الثاني

آدابه مع شيخه وقدوته ، وما يجب عليه من تعظيم حرمته

فمنها ينبغي للطالب أن يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه ، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه . وليكن ممن كملت أهليته ، وظهرت ديانته ، وتحققت معرفته ، وعرفت عفته ، واشتهرت صيانته وسيادته ، وظهرت مودته وحسن تعليمه ، ولا يرغب الطالب فيمن زاد علمه ونقص ورعه أو دينه ، فعن السلف : هذا العلم دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم . قالوا ولا يأخذ العلم ممن كان أخذه له من بطون الكتب من غير قراءة على شيوخ أو على شيخ حاذق له معرفة تامة ولو بعلم واحد ومشاركةٌ في بعض العلوم خوفاً من التصحيف والغلط . وقال الشافعي : من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام . وقيل : من تفقه من بطون الكتب بدّل الأحكام ، ومن طبّ من بطون الكتب قتل الأنام . وليحذر من أن يتقيد الطالب بالمشايخ المشهورين ، وترك الأخذ عن الخاملين ، فقد عدّ الغزالي ذلك من الكبر على العلم ، وجعله عين الحماقة لأنّ الحِكْمَةَ ضالّةُ المُؤْمِنِ يلتقطها حيث وجدها ، ويغتنمها حيث ظفر بها ، ويتقلدُ المنةَ ممنْ ساقها إليه ، وربما يكون الخامل له بركة ونفعٌ فيحصل به تمام النفع .

ومنها أن ينظر معلمه بعين الاحترام ، والإجلال والإكرام ، ويعتقد فيه كمال الأهلية فإن ذلك ينفعه . وكان بعض السلف إذا توجه إلى شيخه

تصدّق بشيء وقال : اللهم أستر عيب معلمي عني ، ولا تُذهب بركة علمه مني .
وقال الشافعي رضي الله عنه : كنت أصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحًا رفيقًا هيبةً له لئلا يسمع وقعها . وقال الربيع : والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر هيبةً له . قال حمدان بن الأصبهاني : كنت عند شريك فأتاه بعض أولاد الخليفة المهدي فأستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا ، ثم عاد فعاد شريك بمثل ذلك ، فقال ابن الخليفة : أتستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال : لا ولكن العلم أجلّ عند الله من أن أضيعه فجثى على ركبتيه فقال شريك : هكذا يُطلب العلم . روي أن يحيى بن سعيد القطان كان يصلي العصر ثم يستند إلى أصل منارة مسجده ، فيقف بين يديه علي بن المديني والشاذكوني ، وعمرو بن علي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين وغيرهم يسألونه عن الحديث وهم قيام على أرجلهم إلى أن تحين صلاة المغرب لا يقول لواحدٍ منهم اجلس ولا يجلسون هيبةً له وإعظامًا . قلت : وهذا القيام بين يديه لله لا له ، وإنما لما خصه الله من العلم وهيبته ومنحته ، فلا يدخل في قوله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَمَثَّلَ النَّاسُ لَهُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ، لأنه لا يحب ذلك لنفسه وإنما للسرّ المودع فيه من العلم ، ولتهذيب أخلاق الطلبة وصونهم عن التكبر وتخلقهم بالتواضع والله أعلم .

ومنها أن يعرف للمعلم حقه ، ولا ينسى له فضله ويتواضع له ويذل ، ويعلم أن ذله لشيخه عزٌّ ، وخضوعه له فخر ، وتعظيم حرمته مثوبةٌ ، والتشمير في خدمته شرفٌ . قال صلى الله عليه وسلم : تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ مِنْهُ . وأخذ ابن عباس رضي الله عنهما مع جلالته ومزيته بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا . ويقال : إن الشافعي رحمه الله عوتب على تواضعه للعلماء فقال :

أُهينُ لهم نفسي فهم يكرمونها ولن تكرم النفسُ التي لا تُهينها

ومنها أن لا يُنكر عليه ، ولا يتأمر عليه ، ولا يشير عليه بخلاف رأيه

فيرى أنه أعلم بالصواب منه .

وإن عساه أن تعلم جاهلاً فيزعم جهلاً أنه منك أفهم

بل ينقاد إليه في أموره كلها ، ويُلقي إليه زمام أمره ، ويُذعن لنصحه ، ويتحرى رضاه ، ولا يختار إلا اختياره ، ويأتمر بأمره ، ولا يخرج عن رأيه ، وليدع رأيه فخطأ مُرشده أنفع له من صوابه في نفسه ، وفي قصة موسى والخضر تنبيه على ذلك ، وبالجملة فيكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر الناصح ، بل هذا أولى لتفاوت ثمرتيهما والله أعلم .

ومنها أن يُبجله في خطابه وجوابه في غيبته وحضوره ، ولا يُخاطبه بناء المخاطب وكافه ، ولا يُناديه من بعد ، بل يقول : يا سيدي ويا أستاذ أو يا أيها العالم أو الحافظ ويُخاطبه بصيغة الجمع نحو ما تقولون في كذا ، وما رأيكم في كذا ، وقلتم رضي الله عنكم ، وأجزتم رضي الله عنكم ، ولا يُسميه في غيبته باسمه إلا مقرونًا بما يُشعر بالتعظيم كقوله : قال الشيخ أو شيخنا أو سيدنا أو شيخ الإسلام أو حُجة الإسلام ونحو ذلك . فمراعاة حرمته وهديه في غيبته أو بعد موته فلا يغفل عن الدعاء له مدة حياته ، ويرد غيبته ويغضب لها ، فإن عجز عن ذلك قام وفارق المجلس الذي يُغتاب فيه شيخه ، ويُراعي ذُريته وأقاربه بعد موته ، ويشاهد زيارة قبره والاستغفار له والترحم عليه والصدقة عنه ، ويسلك مسلكه ، ويراعي في الدين عادته ، ويقتدي بحركاته وسكناته في عباداته وعاداته ، ويتأدب بآدابه ، ويشكر الشيخ إذا نصحه في أمر نقيصة صدرت منه ، وعلى فضيلة نبه عليها وشوهدت منه ، ويعد ذلك من نعم الله عليه من الشيخ بأعتناء الشيخ به ونظره إليه .

ومنها أن يصبر على هفوة تصدر من شيخه أو جفوة أو سوء خُلق ، ولا يصده ذلك عن مُلازمته وحُسن عقيدته واعتقاد كماله ، ويتأول أفعاله التي ظاهرها مذموم على أحسن تأويل ، فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق ، و يبدأ هو عند جفوة الشيخ بالاعتذار والتوبة والاستغفار ، وينسب الموجب إليه ، ويوقع العتب

عليه ، فإن ذلك أبقى لمودّة شيخه ، وأحفظ لقلبه ، وأنفع في الدُّنيا والآخرة . فمن صبر على ذُلّ التعليم آل أمره إلى عزّ الدُّنيا والآخرة ، ومن لم يصبر بقي عمره في غاية الجهالة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ذللتُ طالبًا فعززت مطاوبًا ، ولبعضهم :

فاصبر لدائك إن أهنتَ طبيبه ... واصبر لجهلك إن جفوتَ معلّما

إنّ المعلم والطبيبَ كلاهما ... لا ينصحان إذا هما لم يُكرَما

قال الشافعي رضي الله عنه : قيل لسفيان بن عُيينة : إن قومًا يأتونك من أقطار الأرض تغضبُ عليهم يوشك أن يذهبوا ويتركوك فقال للقائل : هم حمقاء إذاً إن تركوا ما ينفعهم لسوء خُلُقي .

ومنها أن لا يدخل على الشيخ في غير المجلس العام بغير إذنه سواء كان الشيخ وحده أو معه غيره ، فإن استأذن ولم يأذن له انصرف ، ولا يكرر الاستئذان ، فإن لم يعلم الشيخ يكرر ثلاثًا أو ثلاث طرقات للباب ، وليكن طرقُ الباب خفيفًا بقدر ما يَسمع ، وإن أذن وكانوا جماعةً تقدّم أفضلهم وأسنُّهم للدُّخول ثم يسلم الأفضل فالأفضل .

ومنها أن يجتهد على أن يسبق في الحضور إلى المجلس قبل حضور الشيخ ويحمل نفسه على ذلك وإن انتظره على باب داره ليخرج ويمشيَ معه إلى المجلس فهو أولى ، ولا يتأخر بحيث يمل الشيخ في انتظاره ، فإن فعل ذلك من غير ضرورة عرّض نفسه للذّم . وإذا دخل على الشيخ فليدخل كامل الهيئة فارغ القلب من الشواغل ، منشرح الصدر ، صافيَ الذهن لا في حال نُعاس أو غضب أو جوع أو عطش ، متطهراً نظيفًا متسوكاً مزيلاً روائحه الكريهة ، ولا يقرأ على الشيخ عند شغل قلبه وملله ونُعاسه وجوعه وعطشه واستيفازه وألمه وقائلته ونحو ذلك مما يمنعه من استيفاء الشرح ، ومتى دخل على الشيخ في غير المجلس العام وعنده من يتحدث معه فسكتوا عن الحديث ، أو دخل الشيخ ليصلي أو يقرأ أو يطالع أو يكتب ولم يبدأه بكلام فليسلم ويخرج سريعًا إلا أن

يأمره الشيخ بالمكث ، فإذا مكث فلا يُطيل المكث خشية أن يدخل في عموم من شغل مشغولاً بالله أدركه المقت في الوقت . وإذا حضر مكان الشيخ فلم يجده انتظره ولا يفوّت على نفسه درسه ، وإن كان نائماً صبر حتى يستيقظ . وروي أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يجلس في طلب العلم على باب زيد ابن ثابت وهو نائم فيقال له : ألا توقظه لك ؟ فيقول : لا ، وكذلك كان السلف يفعلون .

ومنها أن لا يطلب من الشيخ وقتاً يقرأ فيه وهو عليه مشقّ ، أو لم تجر عادته بالإقراء فيه وإن كان رئيساً ، لما فيه من الترفع والحمق على الشيخ والطلبة ، وربما استحى الشيخ منه وأقرأه وعطل غيره بسببه فلا يفلح ، فإن أشار الشيخ عليه بوقت خاصّ فلا بأس ، وأن يجلس بين يديه متأدّباً بسكون وإطراق رأس وخضوع وتواضع وخشوع وجلوس الافتراش أو التورك ، ويحسن هنا الإقعاء المستحب على وجهٍ في الجلوس بين السجدتين في الصلاة ، وهو أن يفترش قدميه ويجلس على بطونها ، ويتعاهد تغطية أقدامه وإرخاء ثيابه . ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط أو مِخدّة ، ولا يعطي الشيخ جنبه ولا ظهره ، ولا يجعل يديه ماسكة وراء ظهره ، ولا يضع رجله أو يده أو شيئاً من بدنه أو ثيابه على ثياب الشيخ أو وسادته أو سجادته . قال بعضهم : ومن تعظيم الشيخ أن لا يجلس إلى جانبه ولا على مُصلاّه ، وإن أمره شيخه بذلك فلا يفعله إلاّ إذا جزم عليه جزماً تشقّ عليه مخالفته ، فيمتثل أمره ثم يعود إلى ما يقتضيه الأدب .

هذا وقد تكلم الناس في أي الأمرين أولى : امتثال الأمر ، أو سلوك الأدب . وكان مذهب أبي بكر وعلي رضي الله عنهما الثاني ، ومذهب عبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما الأول ؛ وقصصهم مشهورة . قال شيخ الإسلام البدر بن جماعة : والذي يترجح التفصيل ، فكل على قدر مقامه ، فأبو بكر وعلي مقامهما المراجعة في الأمر ، وعبد الرحمن ومعاذ بن جبل مقامهما امتثال الأمر لا المراجعة . وأيضاً صاحب الأدب جبره حاصل ، وصاحب

امتثال الأمر قد يقصد جبره وإظهار احترامه والاعتناء به .

ومنها أن يلقي السمع وهو شهيد لما يلقيه الشيخ ، بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام ، ولا يلتفت عنه يميناً ولا شمالاً وفوقاً وتحتاً وأماماً ووراء من غير ضرورة ، ولا يضطرب لصيحة يسمعها ، ولا يتكلم بيديه إلى وجه الشيخ وصدره ولا يعبث بهما ، ولا يضع يده على لحيته أو فمه ، أو يعبث بهما في أنفه ، ولا يشبك أصابعه ، ولا يكثر التنحنح من غير حاجة ، ولا يبصق ولا يتمخط ولا يتنخم ما أمكنه ، وإذا كان كذلك فليأخذها بمنديل ونحوه من فمه ، ولا يتجشأ ولا يتمطى ، ولا يكثر التثاؤب ، وإذا تثاءب سترفاه بعد رده جهده ، وإذا عطس خفض صوته جهده وستر وجهه بمنديل ونحوه ، ويكون ساكناً مطمئناً وقوراً وقوراً وذلك لا يخفى على من له أدنى أدب طبيعي .

ومن تتمات ما نحن فيه أنه لا يسارر في مجلس شيخه ولو في مسألة ، ولا يغمز أحداً ، ولا يكثر كلامه بغير ضرورة ، ولا يحكي ما يضحك منه أو ما يتضمن سوء أدب ، ولا يتكلم بما لم يسأله شيخه عنه ، ولا يسأل شيخه ما لم يستأذنه أولاً ، ولا يضحك من غير عجب دون الشيخ ، فإن غلبه الضحك تبسم بغير صوت ، ولا يغتاب أحداً في مجلسه ، أو ينم له عن أحد ، أو يوقع بينه وبين أحد بنقل ما يسوءه كاستنقاص به وتكلم فيه ، أو يقول له فلان يود أن لو أقرأ عليه كالحاث له في أمره ، وتركت ذلك لأجلك ، ففاعل ذلك مع كونه ارتكب مكروهاً أو حراماً أو كبيرة مستحق للزجر والإهانة ، والطرد والإبانة . وقد جاء عن علي رضي الله عنه ان من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال ، ولا تعنته في الجواب ، ولا تلح عليه إذا أعرض ، ولا تأخذ بثوبه إذا كسل ، ولا تشير إليه بيدك ، ولا تغمزه بعينك ولا تغمز بعينك غيره ، ولا تسار في مجلسه ، ولا تطلب زلته ، وإن زل فاقبل معذرته ، وأن لا تقول : قال فلان خلاف قولك ، وأن تحفظه شاهداً وغائباً ، وأن تعم القوم بالسلام ، وأن تخصه بالتحية ، وأن تجلس بين يديه ، وعليك أن توقره لله تعالى ، وإن كانت له حاجة سبقت

القومَ إلى خدمته ، وأن لا تمَلّ من طول صُحبته ، إنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها منفعة .

ومنها أن يحسن خطابه مع الشيخ ما أمكنه ، ولا يقول له : لِمْ ؟ ولا نُسلّم ، ولا مَن نقل هذا ؟ ولا أين موضعه ؟ ولا يقل المحفوظ والمنقول غير هذا وشبه ذلك ، فإن أراد استفادة أصله أو مَن نقله ، فيراجعه بلطف في مجلس آخر بحسن الأدب ولطف العبارة ، وإذا أصرّ الشيخ علَى قولٍ أو دليلٍ ولم يَظهر له ، أو أصرّ الشيخ علَى خلاف الصواب سهواً ، فلا يُغيّر وجهه أو عينيه أو يشير إلى غيره كالمنكر لما قاله ، بل يأخذه ببشرٍ ظاهر وإن لم يكن الشيخ مُصيباً لغفلة أو سهوٍ أو قصورِ نظرٍ في تلك الحال ، فإن العصمة في البشر للأنبياء عليهم السلام . ليحذر من مُفاجأة الشيخ بصورة ردّ عليه مثل أن يقول له : أنت قلتَ فيقول : ما قلت ، ثم أصله إذا فاجأه أو أراد أن يردّ عليه فليكن بألطف عبارة ولو في غير ذلك المجلس كأن يقول : هل تلمحتم جواباً عن ذلك الإشكال أو علَى ذلك التعقب ؟ . وإذا سبق لسان الشيخ إلى تحريف كلمة أن لا يضحك ولا يستهزئ ولا يعيدها كأنه يتنادر بها عليه ، ولا يغمز غيره ولا يشير إليه بل ولا يتأمل ماصدر منه ولا يدخله قلبه ، ولا يصغي إليه بسمعه ، ولا يحكيه لأحد ، فإن اللسان سباق والإنسان غير معصوم ، وفاعل شيء مما ذُكر مع شيخه مُعرّض نفسه للحرمان ، والبلاء والخسران ، مستحقٌ للزجر والتأديب ، والهجر والتأنيب والله أعلم .

ومنها أن لا يسبق الشيخَ إلى شرح مسألة أو جواب سؤالٍ منه أو من غيره ، لا سيما إذا كان من غيره وتوقف الشيخ ، ولا يساوقه فيه ، ولا يظهر معرفةً به أو إدراكه له قبل الشيخ ، إلا أن يعلم من الشيخ إيثار ذلك منه ، أو عرض الشيخ عليه ذلك ابتداءً والتمسه منه فلا بأس به حينئذ ، ولا يقطع علَى الشيخ كلامه ولا يسابقه ، وإذا سمع الشيخَ يذكر حكماً في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكايةً أو يُنشد شعراً وهو يحفظ ذلك أن يُصغيَ إليه إصغاءَ مستفيدٍ متعطّشٍ إليه فرحٍ به كأنه لم يسمعه قط . قال عطاء : إني لأسمع الحديث

obeikandi.com

من الرّجل وأنا أعلم به منه فأريه من نفسي أني لا أحسن منه شيئًا . وعنه قال: إن الشابّ ليتحدّث بحديث فأستمع له كأني لم أسمعه، ولقد سمعته قبل أن يولد. فإن سأله الشيخ عند الشروع في ذلك عن حفظه للحديث أو المسألة فلا يجيب بلا لما فيه من الكذب، ولا يجيب بنعم لما فيه من الاستغناء عن الشيخ، بل يقول: أحبّ أن أستفيده، أو عهدي به بعيد، فإن علم من حال الشيخ أنه يسرّه الإيراد امتحانًا لضبطه وحفظه وتحصيله فلا بأس بذلك. ولا ينبغي أن يكرر ما يعلمه، ولا استفهام ما يفهمه، فإنه يضيّع الزّمان، وربما أضجر الشيخ. قال الزّهري: إعادة الحديث أشدّ من نقل الصخر. ولا ينبغي أن يُقصِّر في الاصغاء والتفهم، أو يَشغَل ذهنه بفكر أو حديث ثم يستعيد الشيخ ما قاله لأن ذلك إساءة أدب، بل يكون مصغيًا لكلامه حاضر الذهن لما يسمعه من أوّل مرّة. وكان بعض المشايخ لا يعيد لمثل هذا إذا استعاده، ويزبره عقوبة له، أما إذا لم يسمع كلام الشيخ لبعده أو لم يفهمه مع الإصغاء إليه والإقبال عليه فله أن يسأل الشيخ إعادته أو تفهيمه بعد بيان عذره بسؤال لطيف.

ومنها أن لا يسأل عن شيء في غير موضعه ففاعل ذلك لا يستحق جوابًا، إلا أن يعلم من حال الشيخ أنه لا يكره ذلك، ويغتنم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه، ويتلطف في سؤاله ليحسن في جوابه. قال صلى الله عليه وسلم: الاقْتِصَادُ فِي النَّفَقَةِ نِصفُ المَعِيشَةِ وَالتَّوَدُّدُ إلى النَّاسِ نِصفُ العَقْلِ وَحُسْنُ السُّؤالِ نِصفُ العِلْمِ.

ومنها أن لا يستحي من السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رق وجهه رق علمه، ومن رق وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرّجال. وقال ابن شهاب: العلم خزائنُ ومفتاحه المسألة، وإذا قال له الشيخ: أفهمت؟ فلا يقل نعم قبل أن يتضح له المقصود من المسألة إيضاحًا جليًّا لئلا يكذب ولا يستحي من قوله لم أفهم، لأن استثباته يحصّل

له مصالحَ عاجلةً وآجلة ، فمن العاجلة : حفظ المسألة وسلامته من الكذب وإظهار فهم ما لم يكن فهمه ، واعتقاد الشيخ اعتناءه بالعلم ورغبته وكمال عقله وورعه ونصحه لنفسه ، ومن الآجلة ثبوت الصواب في قلبه دائمًا . وعن الخليل ابن أحمد : منزلة الجهل بين الحياء والأنفة .

ومنها أن يكون ذهنه حاضرًا مع الشيخ ، فإن أمره بشيء بادر إليه ولم يعاوده فيه ، وإذا ناوله شيئًا تناوله التلميذ باليمين ، وإذا تناول هو شيئًا تناوله باليمين ، وإذا ناول هو شيخه شيئًا ناوله باليمين ، وإن كان ورقةً كتبيا أو قصةً مثلاً نشرها ثم دفعها إليه ، ولا يدفعها مطويةً إلا إذا علم أو ظن إيثار الشيخ لذلك ، وإذا أخذ من الشيخ ورقةً بادر إلى أخذها منشورةً قبل أن يطويها ويُريها ثم يطويها ، وإذا ناول الشيخ كتابًا ناوله إياه مُهيَّأً لفتحه من غير احتياج إلى إدارته ، وكذا إن كانت مطالعته في موضع معيّن يُهيئه له ولو بالتقريب ، ولا يحذف إليه الشيء ، ولا يمدّ يده إلى حاجة إذا كان بعيدًا عنها كأن يتكئ لجنبه ليأخذ ذلك الشيء ، بل يقوم إليه ولا يزحف زحفًا ، وإذا وضع بين يديه دواةً فليضعها مفتوحةً ، وإذا ناوله سكّينًا فلا يصوّب إليه رأس نصلها ولا نصابها ، بل يناوله إياها عرضًا لأنه إن ناوله نصلها فقلة أدب من حيث أنه أشار إليه بنصل السكين ، وإن ناوله نصابها يخشى على يد المناول من انفتال الحدّ إلى اصبعه ، فالأولى العرض ، وليكن الحدّ في العرض إلى جهته قابضًا على طرف النصاب مما يلي النصل ليأخذ هو بأول النصاب . وإن ناوله سجادةً ليصلي عليها نشرها أولاً ، والأدب أن يفرشها عند قصد ذلك . قال ابن جماعة : وإذا فرشها ثنى مؤخّر طرفها الأيسر كعادة الصوفية ، فإن كانت مثنيةً جعل طرفها إلى يسار المصلي ، وإن كان فيها صورة محراب تحرّى به القبلة إن أمكن ، ولا يجلس بحضرة الشيخ على سجادة ، ولا يصلي عليها إذا كان المكان طاهرًا ، وإذا قام بادر القوم إلى أخذ السجادة وإلى الأخذ بيده أو عضده إن احتاج ، وإلى تقديم نعله إن لم يشقّ ذلك على

الشيخ ويقصد بذلك كله التقرب إلى الله تعالى وإلى قلب الشيخ . وقيل : أربعة لا يأنف الشريف منهن وإن كان أميراً : قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته للعالم الذي يتعلم منه ، والسؤال عما لا يعلم ، وخدمته للضيف .

ومنها أن يقوم بقيام الشيخ ولا يجلس وهو قائم ، ولا يضطجع وهو قائم أو قاعد ، بل ولا يضطجع بحضرته مطلقاً إلا أن يكون وقت نوم ويأذن له ، ويقوم له كلما ورد عليه ولو تكرر لزيادة التوقير والإعظام والاحترام ، وقد تقدم أن شيخ الإسلام النووي ألف كتاباً في مسألة القيام .

ومنها إذا مشى مع شيخه ليلاً فليكن أمامه [1] ، أو نهاراً فليكن وراءه إلا أن يقتضي الحال خلاف ذلك لزحمة أو غيرها ، وليتبع في ذلك عادة أهل البلد فمتى خالف نسب لقلة الأدب ومما ينسب لشيخ الإسلام البرهان بن جماعة ما لفظه : فائدة من عادة الفقراء المشي خلف الشيخ ، ومن عادة الفقهاء المشي بين يدي الشيخ ، وقد ورد في الحديث أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يمشون بين يديه ولا يدع أحداً يمشي خلفه ويقول : دعوا ظهري للملائكة . قلت : ولهذا ترى الدولة يكون رئيسهم وكبيرهم وراء القوم وهذا أصله ، ومن فعل عكس ذلك من الأكابر فمراده أن لا يتشبه بمن هو أكبر منه ولكن تفوته السنة ، ولا يخفى الفرق بين صدر الصحابة ورئيسهم ، ولا بين من تأخر عنهم خصوصاً في زماننا ، لأن الصحابة ورئيسهم صلى الله عليه وسلم كان كأحدهم لا يتميز من بينهم بزيادة ثوب فاخر ولا فرس مسومة ، ولا تقدم القوم عليه بمسافة ليمشي وحده مما يفعل في زماننا من ذلك من تقدم الفرسان ثم المشاة ثم السعاة ، ثم الانفراد ، وهذا عين الجبروت ، فأصله سنة ولكن انقلب ذلك إلى طريق البدعة ، اللهم إلا أن يقصد بذلك رهبة العصاة والطغاة والمارين فلا بأس وهو أعلم بالنيات ، والمطلع على الطويات .

ويتعين تقدم التلميذ على الشيخ ليلاً ونهاراً في المواضع المجهولة الحال

(١) أي ليفديه بنفسه من غادر يدهم أو حفرة ونحو ذلك .

كالوحل والوجل والحوض والمواضع الخطرة ، ولا يمشي إلى جانبه إلا لحاجة أو إشارة منه ، ويعرفه بمن يقصده وهو ماشٍ من الأعيان إن لم يعلم به ، ويؤثره بجهة الظل في مشيه في الصيف ، وفي الشتاء بجهة الشمس ، ولا يمشي بين الشيخ وبين من يحدثه الشيخ ، ويتأخر عنهما أو يتقدم ولا يتسمع ، فإن أدخلاه في حديثهما فليدخل من الجانب الآخر عن يمينه أو يساره ليكون الشيخ وسطاً ، وإذا مشى مع الشيخ اثنان فليكن الأسن عن يمينه ، وإذا صادف الشيخ في الطريق بدأه بالسلام ، ويقصده إن كان بعيداً ولا ينادي به ، وإذا رافقه لا يشير ابتداء بالأخذ في طريق حتى يستشيره والله أعلم .

القسم الثالث

في آداب درسه وقراءته وما يعتمده مع شيخه ورفقته حينئذ

فمنها أن يبتدئ أولاً من وفقه الله تعالى بحفظ كتاب الله العزيز حفظاً متقناً فهو أصل العلوم وأهمها ، وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن ، وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بغيره من العلوم كالحديث والفقه اشتغالاً يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان ، بل يتعهد دراسته وملازمة ورد منه كل يوم أو أيام أو جمعة دائماً أبداً كما تقدم . قال ابن جماعة : ويجتهد بعد حفظه على إتقان تفسيره وسائر علومه انتهى .

ثم يحفظ في كل فن مختصراً يجمع فيه بين طرفيه ، ويقدم الأهم فالأهم ، ومن أهمها الفقه والنحو والتصريف ، ثم الحديث وعلومه والأصول ثم الباقي على ما تيسر ، ثم يشتغل باستشراح محفوظاته على المشايخ ، وليحذر من الاعتماد على الكتب ابتداء ، بل يعتمد من الشيوخ في كل فن أكثرهم تحقيقاً فيه وتحصيلاً منه وأحسنهم تعليماً ، فإن أمكن شرح دروس في كل يوم فعل وإلا

اقتصر على الممكن من درسين وثلاثة ، وإذا اعتمد شيئاً وكان لا يتأذى بقراءة ذلك الفن على غيره فليقرأ على ثان وأكثر ما لم يتأذوا ، فإن تأذى المعتمد عليه اقتصر الطالب عليه وراعى قلبه فهو أقرب إلى انتفاعه ، ولا يقرأ في كتب لا يحتملها عقله ولا تصوره ، والمطالعة في التصانيف المتفرقة يضيع الزمان ويفرق الذهن ، بل يعطي الكتاب الذي يقرأه والفن الذي يأخذه كليته حتى يتقنه .

ومنها أن يعتني بتصحيح درسه الذي يتحفظه قبل حفظه تصحيحاً متقناً على شيخه أو على غيره ممن يكون أهلاً لذلك ، ثم يكرر عليه بعد حفظه تكراراً جيداً ، ثم يعين له أوقات المواضي ليرسخ رسوخاً تاماً ، ولا يحفظ ابتداء من الكتب ، لأنه ربما يقع في التحريف والتصحيف ، ويحضر معه الدواة والسكين للتصحيح ، ويضبط ذلك لغة وإعراباً ، وإذا رد عليه الشيخ لفظة وظن أو علم أن رده خلاف الصواب راجعه برفق لاحتمال سهوه ، أو في مجلس آخر لاحتمال أن يكون الصواب مع الشيخ ، وهذا لا يفوت على التلميذ بخلاف ما يفوت كأن يكتب الشيخ على رقعة فتوى على خلاف الصواب ، وكون السائل غريباً أو بعيد الدار أو مشنعاً تعين تنبيه الشيخ في الحال بإشارة أو تصريح ، فإن تركه ذلك خيانة للشيخ ، فيجب نصحه بلطف . وإذا وقف على مكان في الكتاب المحفوظ منه كتب قبالته بلغ العرض أو التصحيح ، ويبدأ بالدرس الأهم بالأهم من العلوم .

ومنها أن يذاكر بمحفوظاته ويديم الفكر فيها ويعتني بما يحصل فيها من الفوائد . ويقسم أوقات ليله ونهاره ويغتنم ما بقي من عمره ، وأجود الأوقات للحفظ الأسحار ، وللبحث الإبكار ، وللكتابة وسط النهار ، وللمطالعة والمذاكرة الليل . وقال الخطيب : أجود أوقات الحفظ الأسحار ، ثم وسط النهار ، ثم الغداة ، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع ، وأجود أماكن الحفظ الغرف وكل موضع بعيد عن الملهيات . قال : وليس بمحمود

ٱلحفظ بحضرة ٱلنبات وٱلخضرة وٱلأنهار وقوارع ٱلطرق وضجيج ٱلأصوات ، لأنها تمنع من خلوّ القلب غالباً .

ومنها أن يبكر بدرسه لخبر بُورِكَ لأُمَّتي في بُكُورِهَا ، ولخبر اغْدُوا في طَلَبِ ٱلْعِلْمِ فَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُبَارِكَ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا . ويجعل ذلك يوم ٱلخميس رواه ٱلطبراني بسند ضعيف . وفي رواية : بُورِكَ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا يَوْمَ سَبْتِهَا وَخَمِيسِهَا . وجاء في ٱلخبر أنه صلى ٱلله عليه وسلم قال : أَطْلُبُوا ٱلْعِلْمَ يَوْمَ ٱلْإِثْنَيْنِ فَإِنَّهُ يُيَسَّرُ لِطَالِبِيهِ . وروى بعضهم في يوم ٱلأربعاء خبرَ مَا مِنْ شَيْءٍ بُدِئَ يَوْمَ ٱلأَرْبِعَاءِ إِلَّا وَقَدْ تَمَّ . ونُقِل عن أبي حنيفة رضي ٱلله عنه أنه كان يوقف بداية ٱلاشتغال على يوم ٱلأربعاء . ورأيت كثيراً من مشايخنا يتحرّون ٱلابتداء يوم ٱلأحد . فينبغي مزيد ٱلاعتناء بهذه ٱلأيام وهذه ٱلأوقات إلّا أن تجريَ عادة ٱلشيخ بغير ما ذكر ، فلا يعترض عليه .

ومنها أن يبكر بسماع ٱلحديث ولا يهمل ٱلاشتغال به وبعلومه ، وٱلنظر في إسناده ورجاله ومعانيه وأحكامه وفوائده ولغته وتواريخه ، ويعتني أوّلاً بصحيحي ٱلبخاري ومسلم ، ثم ببقية ٱلكتب ٱلأعلام ٱلأصول ٱلمعتمَدَة في هذا ٱلشأن كموطأ مالك وسنن أبي داود وٱلنسائي وٱبن ماجه وجامع ٱلترمذي ومسند ٱلشافعي ، ويعتني بالدّراية عن ٱلرّواية . قال ٱلشافعي رضي ٱلله عنه : من نظر ٱلحديث قَوِيت حُجته ، ولأن ٱلدّراية هي ٱلمقصود بنقل ٱلحديث وتبليغه .

ومنها أن يعتني برواية كتبه ٱلتي قرأها أو طالعها لاسيما محفوظاته ، فإن ٱلأسانيد أنساب ٱلكُتب ، وأن يحترص على كلمة يحفظها من شيخه أو شعر يُنشده أو يُنشيه أو مؤلَّف يؤلفه ليَروي ذلك عنه ، ويجتهد على روايات ٱلأمور ٱلمهمة كٱلفقه وٱلفوائد ٱلنفيسة وٱلمسائل ٱلرقيقة وٱلفروع ٱلغريبة وحل ٱلمشكلات وٱلفروق في ٱلأحكام ٱلمتشابهات من جميع ٱلأنواع ويعلق ذلك بٱلكتابة . قال صلى ٱلله عليه وسلم : قَيِّدُوا ٱلْعِلْمَ ، قلت : وما تقييده ؟ قال : كِتَابَتُهُ . وكان رجل من ٱلأنصار يجلس إلى ٱلنبي صلى ٱلله عليه وسلم فيسمع

منه الحديث فيعجبه ولا يحفظه ، فشكى ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : استعن بيمينك وأومأ بيده أي خطّ . وعن عمر رضي الله عنه قال : قيدوا العلم بالكتاب . وعن معاوية بن قرّه قال : كان يقال من لم يكتب علمه لم يعدّ علمه علماً . وروي عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما أنه دعا بنيه وبني أخيه فقال : إنكم صغار قوم ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين فتعلموا العلم ، فمن لم يستطع منكم أن يحفظه فليكتبه وليضعه في بيته .

وينبغي بل يتعين أن تكون همته في طلب العلم عالية ، فلا يكتفي بقليل العلم مع إمكان كثيره ، ولا يقنع من إرث الأنبياء بيسيره ، ولا يؤخر تحصيل فائدة تمكن منها ، ولا يشغله الأمل والتسويف عنها ، فإن للتأخير آفات ، ولأنه إذا حصلها في الزمن الحاضر نفعته في الزمان الآت ، ويغتنم وقت الفراغ والنشاط ، ويجتهد في الاستنتاج والاستنباط ، قبل عوارض البطالة ، وموانع الرئاسة والملالة ، وليحذر كل الحذر من نظر نفسه بعين الكمال ، والاستغناء عن المشايخ فإن ذلك من فعل الجهال ، ويلازم حلقة شيخه في التدريس والإقرا ، فإنه لا يزيده التحصيل إلا خيرا ، كما قال علي رضي الله عنه وقد سلف : ولا تشبع من طول صحبته فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها منفعة ، ولا يقتصر على سماع درسه فقط فإن ذلك من قصور الهمة ، بل يعتني بسائر الدروس شرحاً وتعليقاً ونقلاً إن احتمل ذهنه حتى كأن كل درس منها له .

وأما دروس التقسيم فشأنها كدرس واحد فمن لم يطق ضبطها لا يصلح لدخوله فيها . وإذا حضر مجلس الشيخ فيسلّم على الحاضرين بصوت يسمعهم ويخص الشيخ بمزيد تحية ، وكذا يسلّم إذا انصرف . قال ابن جماعة : وعد بعضهم حلق العلم في حال أخذهم العلم منه من المواضع التي لا يسلّم فيها ، وهذا عليه العمل لكن محله في شخص واحد مشتغل بحفظ درسه . وإذا سلم فلا يتخطى رقاب الحاضرين إلى قرب الشيخ إن لم تكن منزلته ، بل يجلس

حيث انتهى به المجلس كما ورد في الحديث . فإن قدّمه الشيخ والحاضرون فليتقدّم لانتفاع الحاضرين بمذاكرته مع الشيخ أو لكبر سنه أو لصلاح .

ومنها أن يحرص على قربه من الشيخ ليفهم منه بلا مشقة بشرط أن لا يرتفع على أفضل منه ، ولا يؤثر بقربه من الشيخ إلا من هو أولى منه ، ولا يقرب من ينتسب فيه إلى قلة أدب ، وإذا سبق التلميذ إلى مكان في مجلس الدرس وألفه كان أحق به ، فليس لغيره أن يقيمه منه ، ولا يبطل حقه بانقطاعه يوماً أو يومين مثلاً لضرورة إذا حضر ، والكلام فيه كالكلام في محترف إذا ألف مكاناً من شارع ، والمسألة مشروحة في محلها من كتب الفقه . واعلم أنه إذا كان الشيخ في صدر المكان فأفضل الجماعة أحق بما على يمينه ثم شماله ، وقد جرت العادة في مجالس التدريس بمجلوس المتميزين قبالة وجه المدرس والمبجلين من معيد وزائر عن يمينه ويساره . وينبغي أن يتأدب مع رفقته وحاضري مجلس شيخه ، فإن تأدبه معهم تأدب مع الشيخ واحترام له ، ولا يقيم أحداً من مجلسه ولا يزاحمه ولا يقبل من يؤثره بمجلسه . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وترسعوا . وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قام له الرجل من مجلسه لم يقعد فيه ، ولا يجلس وسط الحلقة ولا قدام أحد بلا ضرورة . وينبغي أن يكون حراماً شديداً لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من جلس وسط الحلقة .

ومنها أن لا يجلس بين أخوين أو أب وابن أو قريبين أو متصاحبين إلا برضاهما معاً . قال ابن عمر رضي الله عنهما : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلس الرجل بين الرجلين إلا بإذنهما ، وإذا جاء قادم أن يرحبوا له ويوسعوا له ويتفسحوا لأجله ويكرموه بما يكرم به مثله ، ولا يخرج عن بنية الحلقة بتقدم أو تأخر ، ولا يتكلم أثناء درس غيره أو درسه بما لا يتعلق به أو يقطع عليه بحثه ، ولا يشارك أحد من الجماعة أحداً في حديثه . قال بعض الحكماء :

من الأدب أن لا يشارك الرجل في حديثه وإن كان أعلم به منه ، وأنشد الخطيب في هذا المحل :

ولا تشارك في الحديث أهله ... وإن عرفت فرعه وأصله

ومنها إذا أساء بعض الطلبة أدباً على غيره لم ينتهره غير الشيخ إلا بإشارته ، وإن أساء أحد أدباً على الشيخ تعين على الجماعة انتهاره ورده وألا انتصار للشيخ بقدر الإمكان وفاء لحقه ، وإذا أراد القراءة على الشيخ يراعي نوبته تقديماً وتأخيراً . روي أن أنصارياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله وجاء رجل من ثقيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أخا ثقيف إن الأنصاري قد سبقك بالمسألة فاجلس كيما نبدأ بحاجة الأنصاري قبل حاجتك . ولا يؤثر بنوبته غيره ، فإن الإيثار بالقرب مكروه . قال الخطيب : يستحب للسابق أن يقدم على نفسه من كان غريباً لتأكد حرمته ، وكذلك إذا كان للمتقدم حاجة ضرورية وعلمها المتقدم يستحب له تقديمه عليه ، وتحصل النوبة بتقديم الحضور ، ولا يسقط حقه بذهابه إلى ما يضطر إليه من قضاء حاجة وتجديد وضوء إذا عاد بعده ، وإذا تساويا وتنازعا أقرع بينهما ، ومعيد المدرسة إذا شرط عليه إقراء أهلها فيها في وقت ، فلا يقدم عليهم الغرباء بغير إذنهم ، ويكون جلوسه بأدب مع شيخه ، ويحمل كتابه بنفسه ولا يضعه حال القراءة مفتوحاً ، بل يحمله بنفسه بيديه ، ويقرأ منه بعد الاستعاذة والبسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه ، ثم يدعو للشيخ ولوالديه ومشايخه وللعلماء ولنفسه ولسائر المسلمين ، وكذلك يفعل كلما شرع في قراءة درس أو مطالعة أو مقابلة في حضور الشيخ أو في غيبته ، ويترحم على صاحب الكتاب عند قراءته ، وإذا فرغ من الدرس دعا للشيخ أيضاً ، فإن ترك الطالب الاستفتاح بما ذكرناه جهلاً أو نسياناً ذكره الشيخ أو علمه إياه ، فإنه من أهم الآداب . وقد ورد الحديث الحسن في ابتداء الأمور المهمة باسم الله وبحمده .

ومنها أن يذاكر من يرافقه من مواظبي مجلس الشيخ بما وقع فيه من الآداب والفوائد والضوابط والقواعد وغير ذلك ، ويعيدوا كلام الشيخ فيما بينهم ، وينبغي الاسراع بها بعد القيام من المجلس قبل تفرّق الأذهان وتشتت الخواطر. قال بعض الحكماء : من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما تعلمه ، وقال الشاعر :

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ولم يستفد إلاّ نسي ما تعلّما

فكم جامع للكتب في كل مذهب يزيد مع الأيام في جمعه عمى

وأجود الأوقات للمذاكرة الليل كما قال بعضهم . وكان جماعة يبتدئون من العشاء فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح ، فإن لم يجد الطالب من يذاكره ذاكر نفسه بنفسه ليعلق ذلك بخاطره إذا كرره ، فإن تكرار المعنى على القلب كتكرار اللفظ على اللسان ، فإذا امتثل ذلك وتكاملت أهليته ، واشتهرت فضيلته اشتغل بالتصنيف ، والجمع والترصيف ، لأكتسابه من النهاية حلة التشريف .

فصل

في التصنيف

ينبغي لمن كملت أهليته ، وتمت فضيلته أن يعتني بالتصنيف ، ويجد في الجمع والتأليف ، محققا مسائله ، مثبتا نقوله واستنباطه ، متحريا إيضاح العبارة وإيجازها ، ولا يوضح إيضاحا ينتهي إلى الركة ، ولا يوجز إيجازا ينتهي إلى المحق والاستغلاق ، ولا يطول تطويلا يؤدّي إلى الملالة ، ويجتنب الأدلة الضعيفة ، والتعليلات الواهية ، ويبيّن المشكلات ، ويجيب عن التعقبات ويفكّ المعضلات ، ويستوعب معظم أحكام ذلك الفنّ ، ويستعمل القواعد والنوادر ، فبذلك يظهر له حقائق العلم ودقائقه . ويثبت عنده العلم ويرسخ إن أكثر التفتيش والمطالعة ، والتنقيب والمراجعة ، والاختلاف من كلام الأئمة ومتفقه وواضحه ومشكله وصحيحه وضعيفه وراجحه ، إلى غير ذلك ، من سلوك هذه المسالك ، فبذلك يتصف المحقق بصفة المجتهدين ، ويرتفع عن

درجة الجمود والتقليد وينخرط في سلك الأئمة المحققين . قال الخطيب البغدادي : التصنيف يثبت الحفظ ، ويذكي القلب ، ويجيد البيان ، ويكسب جميل الذكر ، وجزيل الأجر . ولا يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له فإن ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه . وليحذر من إخراج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه . وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يسبق إليه أكثر . والمراد أن لا يكون هناك مصنف يغني عن مصنفه في جميع أساليبه ، فإن أغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها مع ضم ما فاته من الأساليب ، وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به ويكثر الاحتياج إليه ، وليعتن بعلم المذهب فإنه من أعظم الأنواع نفعاً ، وبه يتسلط المتمكن على المعظم من باقي العلوم . قال صاحب الأحوذي : ولا ينبغي لمصنف يتصدى إلى تصنيف أن يعدل إلى غير صنفين : إما أن يخترع معنى ، أو يبتدع وضعاً ومبنى ، وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد للورق ، والتحلي بحلية السرق . وهذا لا ينافي ما ذكره بعضهم من أن رتب التأليف سبعة : استخراج ما لم يسبق إلى استخراجه ، وناقص في الوضع يتمم نقصه ، وخطأ يصحح الحكم فيه ، ومستغلق بإجحاف الاختصار يشرح أو يتمم بما يوضح استغلاقه ، وطويل يبدد الذهن طوله يختصر من غير إغلاق ولا حذف لما يخل حذفه بغرض المصنف الأول ، ومتفرق يجمع أشتات تبدده على أسلوب صحيح قريب ، ومنثور غير مرتب يرتب ترتيباً يشهد صحيح النظر أنه أولى في تقريب العلم للمتعلمين من الذي تقدم في حسن وضعه وترتيبه وتبويبه ، فهذا كالشرح لما ذكره صاحب الأحوذي والله أعلم . قال العلامة الشيخ بدر الدين بن جماعة : ومن الناس من ينكر التصنيف والتأليف في هذا الزمان على من ظهرت أهليته ولا وجه لإنكاره إلا التنافس ، وإلا فمن تصرف في ورقه ومداده بكتابة ما شاء من أشعار وحكايات مباحة أو غير ذلك لا ينكر عليه ، فلم إذا تصرف بتسويد ما ينتفع به من علوم الشريعة ينكر ويستهجن ؟ أما من لا يتأهل لذلك فالإنكار عليه متجه .

ومما نقل عن فعل الأئمة من آداب التصنيف أنه كان المزني إذا فرغ من مسألة من المختصر صلى ركعتين . وكان أبو إسحاق الشيرازي شيخ أبي الوفاء بن عقيل لا يخرج إلى فقير إلا إذا أحضر النية ، ولا يتكلم في مسألة إلا إذا قدم الاستعانة بالله تعالى ، ولا صنف مسألة إلا بعد أن صلى ركعات . وما روي عن الشيخ أبي إسحاق أيضاً أنه قال لبعض من يخدمه : جعلت على نفسي أني كلما صنفت مسألة في المذهب أو المهذب قرأت مائة مرة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ثم سألت الله أن يعيد بركتها على تلك المسألة ورغبت إليه في الانتفاع بها . وكان الشيخ أبو إسحاق يصلي ركعتين عند فراغ كل فصل من المهذب . وكان ابن الأرغياني من كبار أئمتنا ما يعلق شيئاً من المذهب إلا على طهارة . وكان الإمام محمد ابن اسماعيل البخاري لا يضع حديثاً في كتاب الصحيح إلا اغتسل وصلى ركعتين .

وقد جرت عادة أئمتنا بعقد مجلس أو عمل وليمة عند ختم كتاب معتبر يؤلفونه أو يحفظونه ، وأصل ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلم البقرة في بضع عشرة سنة . وفي رواية : اثنتي عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزوراً شكراً لله تعالى . وقد اتفق ذلك للحبر شيخ الإسلام ضياء الدين عبد الملك إمام الحرمين عند ختم كتابه الحفيل الجليل المسمى بنهاية المطلب ، فإنه عقد مجلساً لتتمته حضره الأئمة والكبار ، وختم الكتاب على رأس الإملاء والاستملاء وتبجح الحاضرون لذلك وضع وليمة لحاضري مجلسه ، حكاه جماعة منهم ابن السبكي في طبقاته . ولما فرغ شيخ الإسلام ابن حجر شرحه على البخاري المسمى بفتح الباري عمل وليمة حافلة بالمكان الذي بناه المؤيد خارج القاهرة بين كوم الريش ومنية الشيرج ، ويسمى بالتاج والسبع وجوه في يوم السبت ٨ شعبان سنة ٨٤٢ ، وكان المصروف في الوليمة على ذلك نحو خمسمائة دينار . سئل الإمام أبو عبد الله التلمساني عن كثرة تصانيف هذه الأمة واشتغالها بالتصنيف فقال : هذا من فوائد تحريم الخمر عليها وهو قول بديع ومما يلحق بذلك ختم إقراء الكتب أيضاً وهي سنة كثير من العلماء المعتبرين الورعين وفي ذلك مصالح وحكم لطيفة تنوف عن الحصر والضبط والله يعلم المفسد من المصلح